مراعاة المقام في الدرس العقدي
منذ العهد النبوي حتى عصر الميتافيرس

بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي الدولي الخامس
(مراعاة المقام وأبعاده التداولية في الفكر العربي والإسلامي)
المنعقد في ١٨ مارس ٢٠٢٣م
بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية
جامعة الأزهر

إعداد الدكتورة

سونيا لطفي عبد الرحمن الهلباوي

أستاذ العقيدة الإسلامية المشارك بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية الجامعة القاسمية - الإمارات العربية المتحدة
أستاذ العقيدة والفلسفة المساعد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة ، جامعة الأزهر

مراعاة المقام في الدرس العقدي منذ العهد النبوي حتى عصر الميتافيرس

سونيا لطفي عبد الرحمن الهلباوي
قسم العقيدة الإسلامية ، بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الجامعة القاسمية – الإمارات العربية المتحدة
قسم العقيدة والفلسفة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالقاهرة ، جامعة الأزهر
البريد الالكتروني: Sonia.lotfy@azhar.edu.eg

ملخص البحث:
إن للدرس العقدي طبيعة مرنة وقدرة على معايشة الواقع ومعالجة إشكالاته. وهذا البحث محاولة للتعرف على مراحل تطور أدوات الدرس العقدي وأشكال الممارسة العملية للعقيدة وفقًا لمراعاة المقام، وذلك منذ تشكله الأول في صدر الإسلام، حيث كانت العقيدة أساس البناء المعرفي والسلوكي للمسلمين. وقد أثبت الدرس العقدي قدرته على التفاعل البَنَّاء مع المستجدات بأشكالها المختلفة حينما استدعى الواقع المعرفي انصباغ الخطاب العقدي بالصبغة السياسية، وتحول أساس التناول المنهجي من الغرس والإثبات، إلى إعادة تحديد المفاهيم، وتبادل إطلاق الأحكام، وكان ذلك تمهيًا لظهور الجانب الدفاعي وداعيًا لتشَكُّل علم الكلام بالاستخدام الاصطلاحي. وقد أخذ هذا التفاعل أشكالًا متعددة على يد أشهر المدارس الكلامية؛ المعتزلة والأشاعرة. ولم يقتصر دور الدرس العقدي في خدمة الواقع على المدارس الكلامية في تشكلاتها الكلاسيكية الأولى، بل تطور هذا المنهج في العصر الحديث من حيث أساليب التناول وآليات التفعيل الواقعي لدور العقيدة في مواجهة التحديات الفكرية والسلوكية في ظل المستجدات المختلفة. كما حاول البحث أن يقدم تجربة عملية لخدمة الدرس العقدي للواقع فترة جائحة كورونا، وكيف يمكن تقديم رؤيا مستقبلية لمنهج دراسة العقيدة في عصر الميتافيرس.

الكلمات المفتاحية: الدرس العقدي ، مراعاة المقام ، الميتافيرس ، جائحة كورونا ، دراسة العقيدة

Taking into Account the Situation the Creedal Discourse from the Prophet's Era to the Metaphors

Sonia Lutfi Abd Al-Rahman Al-Halbawi

Department of Islamic Faith, Faculty of Sharia and Islamic Studies, Qasimi University- United Arab Emirates

Doctrine and Philosophy Department, Faculty of Islamic and Arab Studies for Girls, Cairo, Al-Azhar

Email: Sonia.lotfy@azhar.edu.eg

Abstract:

The creedal study has a flexible nature and is capable of living up to reality and addressing its problems. This research is an attempt to identify the stages of evolution of the tools of the creedal lesson, and the practical forms of practice of the faith according to the consideration of the situation, since its first formation at the beginning of Islam, where the faith was the basis of the cognitive and behavioral structure of Muslims. The creedal lesson proved its ability to interact constructively with developments in various forms when cognitive reality called for the political effect of creedal discourse, shifting the basis of systematic handling from instilling and proving, to redefining concepts, exchanging judgments, preluding the emergence of the defensive aspect, and advocating theology by terminological use. This interaction has taken many forms at the most famous schools of speech like Al- Moatazella and Al-Ashaaera. The role of the creedal lesson in the service of reality is not limited to the schools of speech in their first classical formations, but rather the evolution of this method

in modern era in terms of approaches and mechanisms for realistic activation of the role of the faith towards the intellectual and behavioral challenges under various developments. The research also tries to provide a practical experience to serve the creedal lesson of reality during the coronavirus pandemic, and how to present a future vision of the approach to the study of doctrine in the age of Meta virus.

Keywords: Creedal lesson, taking into account the situation, metaphors, coronavirus pandemic, and study of creed.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا سبيلًا مستقيمًا نسلكه إلى جنابه، وطريقًا موصلًا إلى عزيز بابه، والصلاة والسلام على منبع النور والهداية سيدنا ومقتدانا محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه صفوة الخلائق أجمعين، وبعد،،

فإن التنوع المذهبي، وتعدد طرق الاستدلال في الفكر الإسلامي من أبرز الشواهد على مراعاة المنهج الإسلامي لمقتضيات حال المتلقي وتغير اهتماماته وثقافته على مر العصور واختلاف الميادين. ولقد كان للدرس العقدي واقع مرن وطبيعة قابلة للفهم وتحقق الغاية المرجوة منه منذ رسم حدوده الأولى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي تجلى بعد ذلك في تجدد مناهج المدارس الكلامية وتطور الأدوات التداولية مع الحفاظ على الثوابت والأصول.

وقد اتضحت معالم هذا المنهج في العصر الحاضر لدى الكثير من المدارس والمؤسسات التي تبنت سبل الحفاظ على الأصول العقدية في ظل التعددية الفكرية والمذهبية على مستوى العالم، واتجهت نحو التناول الموضوعي للمذاهب الإسلامية. هذه المدارس العقدية حقيقةٌ بأن تُدرَس مناهجُها ويُسلَط الضوءُ على معالمها؛ ليظهر هذا الجانب المضيء في مناهج الفكر الإسلامي بصفة عامة والعقدي بصفة خاصة، ولتكون حافزًا لتجدد السعي نحو تطوير آليات التناول للقضايا العقدية والفكرية حسب مقتضيات العصر في ظل أتمتة الأدوات المعرفية، وتوجيه المدارس العلمية نحو مواكبة الواقع، ومعايشة مستجداته، والمساهمة في حل مشكلاته؛ وذلك

بإحياء دور الدرس العقدي – نقلًا وإثباتًا ودفاعًا – بأدوات تلائم العصر، ومعطيات تناسب أهله.

وقد استدعى الواقع المعرفي إحياء دور الدرس العقدي وفق آليات تناسب العصر، وذلك ليس بالأمر الغريب أو المستحدث، ولكنه استمرار لمنهج التداول العقدي على مدار العصور. ولقد حاولت من خلال هذا البحث إلقاء الضوء على تطور أدوات ومناهج الدرس العقدي، وآليات تطبيقه ومراعاته للواقع، وقدرته على معايشة مستجداته والمشاركة في حل مشكلاته بأشكالها المختلفة، وكيف يمكن لنا في ظل هذا الانفتاح التكنولوجي أن نضع رؤية مستقبلية لتصور واقع الدرس العقدي في عصر الميتافيرس، وذلك كجزء من التأكيد على دور قيام علم العقيدة وسائر العلوم الشرعية بدورها في مواكبة هذا العالم المتطور.

وقد استخدمت المنهج الاستقرائي الوصفي وكذلك المنهج التاريخي في تتبع تطور الدرس العقدي ومراعاته للوقع في ظل التحديات المختلفة على مدار العصور، واستعنت كذلك بالمنهجين النقدي والمقارن في معرفة طبيعة كل مرحلة ومدى تلبيتها لحاجات العصر ومناسبتها لمستجداته. ثم استفدت من المنهج الاستنباطي في الاستفادة من المتغيرات التكنولوجية المتعلقة بالمجال التعليمي، ومحاولة وضع رؤيا مستقبلية لآلية التفاعل الإيجابي لصالح مستقبل الدرس العقدي.

وتحقيقًا لهذا الهدف قسمت البحث إلى مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

المبحث الأول: الدرس العقدي في صدر الإسلام

- المطلب الأول: طبيعة الدرس العقدي في مكة
- المطلب الثاني: تطور أدوات الدرس العقدي مع أهل المدينة

- المطلب الثالث: تجدد التداولية بتسيس الأحكام العقدية

المبحث الثاني: الدرس العقدي وعلم الكلام

- المطلب الأول: معالم الدرس العقدي بمدرسة الاعتزال
- المطلب الثاني: المذهب الأشعري وليد لمراعاة المقام

المبحث الثالث: مسار الدرس العقدي في العصر الحديث

- المطلب الأول: منهج تداولية الدرس العقدي في العصر الحديث
- المطلب الثاني: أدوات تعاطي الدرس العقدي فترة جائحة كورونا
- المطلب الثالث: عصر الميتافيرس ورؤيا مستقبلية لمنهج دراسة العقيدة

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العمل المتواضع وسيلة لوصل الجهود السابقة لعلم العقيدة والقائمين عليه أفرادًا ومؤسسات بالرؤى المستقبلية الخلاقة التي تدعم استمرارية الدرس العقدي في أداء مهمته وتحقق غايته.

وصلِ اللهم وسلم وبارك على سيدنا محد وعلى آله وصحبه أجمعين

المبحث الأول: الدرس العقدي في صدر الإسلام

المطلب الأول: طبيعة الدرس العقدي في مكة

حينما نتحدث عن طبيعة الدرس العقدي في صدر الإسلام وفي مكة بصفة خاصة، فإنه لا يخفى أننا نتناول أصعب وأهم مرحلة في التكوين المعرفي للعقل المسلم؛ ذلك أن هذا التحول المفاجئ لكثير من المفاهيم الراسخة قد واجه عقولًا لم تكن لتقبل أي نوعٍ من المزاحمة المعرفية فيما اعتبرته ثوابت ومرجعيات انبنت عليها كل أشكال الحياة آنذاك. ولم يكن المجتمع العربي قبيل الإسلام من السذاجة المعرفية كما اعتقد البعض نتيجة للنظرة المنعكسة عن المصادر الأدبية للشعر الجاهلي وغيره. لكن الحقيقة التي تتجلى لمن يتصور البنية المعرفية لهذا المجتمع بشكل كلي هي أنها لم تكن خالية عن الأشكال الأيدلوجية للمعتقدات مثلما تواجهه كثير من المجتمعات الأخرى قديما وحديثًا، والتي لم يكن المعتقد في حد ذاته هو الدافع الأساس الذي يمثل سبب الحروب والاضطهادات التي كانت سائدة بينهم؛ وأقرب شاهد على ذلك أن الحروب كانت تستمر لسنوات وتتوارد عليها الأجيال بسبب الانتماء والعصبية، في حين ساوم هؤلاء الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أن يكف عن دعوته- التي ستولي وجهة القيادة لقريش، في مقابل أن يعبدوا إلهه فترة من الزمان، ويعبد هو إلههم فترة مماثلة. فلو كان المعتقد هو أساس البناء الأيدلوجي لانحلت المشكلة بمجرد قول النبي صلى الله عليه وسلم لهم: ﴿لَكُم دِينُكُم وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] ولكن الريادة السياسية والوضع الاقتصادي كانا أساس نعرة العصبية التي وقفت حائط صدٍ منيع بين الحق وبين قلوب هؤلاء.

ومن هنا بات يتشكل الدرس العقدي ويخطو خطوات حذرة متوجهًا نحو القلوب أولًا؛ فبدأت نواة هذا التكوين المعرفي تخرج للواقع شكلًا وموضوعًا وهي حذرة متباطئة بالقدر الذي يستوعب الأقربين ومن انطبعت بصائرهم بالحنيفية، فنجد الشكل الخارجي لهذا الأساس المتين يبحث ساعيًا متوجسًا عن الأمان المكاني والأمن النفسي الذين توافرا في دار ابن الأرقم حيث

يجتمع بهم سرًا النبي صلى الله عليه وسلم. وهنا يتجلى منهجٌ مهم في تأسيس البناء العقدي على المستويين الفردي والجماعي؛ وهو أن القلوب هي المحل الأقرب لغرس العقائد، وتحتاج في ذلك إلى تصفية وتخلية من أجل أن تصل إلى مرحلة من الوجل ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَت قُلُوبُهُم﴾ [الأنفال: ٢]، ومنه يكون الجلاء الذي تنعكس على مرآته الحقائق فلا تجد سوى التصديق المبني على الصدق والمعرفة، فتنطلق تلك القوى متوجهة إلى العقل ممدة لكافة الأعضاء بالقوة التي تمكنهم من تحمل ألوان العذاب والمواجهة البدنية والنفسية، مما لم تستطع أن تخترق هذه الأسوار العظيمة التي أعلاها الأساس العقدي المتين الذي انعقدت عليه القلوب ولم يكن من السهل خرقه أو إضعافه.

أما من حيث الطبيعة المنهجية للدرس العقدي آنذاك؛ فمما لا شك فيه أن أسس الاعتقاد كانت مكتملة بالقدر الذي لا يحتاج إلى شواهد أو حجج. والأمر الجدير بالبحث هنا هو المنهج الذي اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم للوصول إلى هذه الدرجة من التمكن العقدي في قلوب أهل مكة خاصة بعد خروج الدعوة إلى طور العلانية، سيما وأن هذه الفترة تمثل أصعب مرحلة في تاريخ الدعوة؛ إذ التحول المعرفي الذي ينبني عليه التكوين الثقافي والكينونة الاجتماعية والاقتصادية ليس بالأمر اليسير. ويمكن إيجاز ملامح الدرس العقدي في مكة المكرمة في النقاط التالي:

١- **مراعاة التطور المعرفي لدى المتلقي:** فالنبي صلى الله عليه وسلم لمَّا حَثَّ قومه عن التوحيد، بدأ بتعريفهم حقيقة الوحدانية: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران:٦٤] تلك الحقيقة التي لا تستلزم تركبًا، أو ولدًا، أو مُقَرِبًا إلى الإله عز وجل. ولم تكن هذه الدعوة ناشئة من فراغ معرفي لدى هؤلاء، بل انطلق النبي صلى الله عليه وسلم من اعترافهم بالتأليه والحاجة إلى معبود، وراعى احتمالية شتات الفكر، وتنوع الإدراك الذي كان أحد أسباب الحاجة إلى إرسال الرسل؛

ذلك "أن شبه الجزيرة العربية كان يموج بتيارات روحية شتى، تتلاقى كلها عند نقطة واحدة، هي الشعور بالحاجة إلى عقيدة من السماء ترسي دعائم الإيمان الصحيح وترسم طريق الهدى للتائهين في بيداء الضلال، وقد كانت هذه النزعات المختلفة .. تمهيدًا لابد منه لكي تدرج رسالة الدين الجديد على أرض ممهدة تستجيب للدعوة، وتمضي بتعاليمها على نحو يتفق مع سنن التطور المترابط الحلقات."[1] فلم يبدأ الخطاب العقدي في هذه الفترة من مرحلة إثبات وجود الله، بل تجاوز ذلك إلى بيان حقيقة الوحدانية، المستلزمة لتوحيد الأساس العقدي للانطلاق إلى مرتبة العبادة، حيث تتحقق الغاية الخَلقية، الأمر الذي لا يعني إغفال جانب إثبات وجود الله في مطلق الخطاب الإثباتي، ليتبين أن طبيعة المتلقي وخلفياته المعرفية جزء أساس من تشكُل الدرس العقدي في جميع مراحله.*

٢- **تنوع طرق الاستدلال:** فإنه على الرغم من وجود مصدر الدعوة في ذلك الوقت، وورود الدلائل والمعجزات الواحدة تلو الأخرى بما لا يدع مجالًا للشك بمجرد فتح باب الموضوعية والإنصاف، إلا أن التنوع كان سمة ظاهرة للمنهج النبوي في تبليغ رسالة الله وتحقق صلة الخلق برب العالمين، فقد تنوعت طرق الاستدلال على العقائد ما بين تنبيهات وإشارات، وأقيسة عقلية، وشواهد حسية، وضرب أمثلة؛ فنجد مثلًا عقيدة البعث تتنوع طرق إثبات إمكانها ووقوعها في القرآن الكريم: ما بين أقيسة واستجوابات عقلية كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا**

١- (أبو ريان، مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية، ص ٤٧)

* - كما لا يخفى مراعاة أن الفَطَر الإنسانية مجبولة على الإقرار بوجود الله تعالى من دون المعوقات التي تعترض طريقها: ﴿**وَإِذ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِم ذُرِّيَّتَهُم وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآ**﴾ [الأعراف: ١٧٢]، والواقع الديني آنذاك شاهد على إقرار أكثر هؤلاء بهذه المرحلة العقدية: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٤٩-٥١]، ﴿ أَفَحَسِبتُم أَنَّمَا خَلَقنَٰكُم عَبَثا وَأَنَّكُم إِلَينَا لَا تُرجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وبين أدلة على إمكان وقوعه عقلًا، كما في قوله عز وجل: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الموت وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ على أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠]، وكذلك التنبيه بالشواهد الحسية، كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وهكذا كان شأن الاستدلال على سائر العقائد بأساليب تتوافق مع الفطرة، ومع المقدمات العقلية، ولا تغفل المقاييس الحسية، كلٌ حسب ما يقتضيه الحال.

٣- **التدرج في تغيير السوابق المعرفية:** من الأهمية بمكان أن نشير إلى هذا المنهج الديني المبني على احترام معتقدات الأخرين، وعدم التصادم الأوَّلي مع مسلماتهم، وهو منهج مراعاة السوابق المعرفية لدى المخاطب، والذي لا يعني التسليم أو المواراة، ولكنه يُعْنَى بتقدير التكوين المعرفي لدى كل إنسان، بغض النظر عن صحة معتقده من عدمه، ولا يعني كذلك تجاهل خطأ المعتقَد، ولكنه منهج قائم على التدرج في معرفة الحق، ليصل إليه من رغب وهو مختار مطمئن. يتجلى هذا المنهج في كثير من مواقف النبي صلى الله عليه وسلم مع أهل مكة: بداية من أول مواجهة مع قومه عند الأمر بإعلان الدعوة؛ فإذ به صلى الله عليه وسلم بعد طول صبر وانتظار للحظة الإذن بالجهر بالدعوة، يصعد جبل الصفا ويجمع الناس ويدعوهم في أول درس عام يُلقَى على الجميع، ويبدأ بطريق الاستنتاج التقريري سائلًا إياهم: " أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟"[1] فيجيبونه ولم يخالطهم شك في صدق

١- (البيهقي ١٩٨٨م، دلائل النبوة ١٨١/٢)

ما يقول: "مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا"[١] فيبلغهم النبي صلى الله عليه وسلم بما أُمِر به دون مصادمة مع سوابقهم المعرفية قائلًا: " فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ"[٢] فيأتيه الإنكار المباشر من أقرب الحاضرين نسبًا إليه: " تَبًّا لَكَ أَمَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا؟"[٣] وهنا يُقَدِر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الموقف رغم صحة وصدق النتيجة المبني على إقرارهم الأني بمقدماتها، فلم يكمل دعواه، أو يرد على الإنكار القاسي لأبي لهب كما تروي كتب السيرة: " فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ولم يتكلم في ذلك المجلس"[٤] ولكنه عاد إليهم بموقف أخر يخاطبهم مخاطبة ذوي الأرحام، الذي يهمه ما يهمهم، ويبين بأسلوب يخاطب الفِطَر ويراعي صعوبة الموقف: "إن الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبدًا أو النار أبدًا"[٥] فمراعاة حال المخاطب وسبق معتقده من أركان الحكمة، حتى ولو كان منكرًا مُظهِرًا العداوة. وفي ذلك مراعاة وتقدير لمقام الخطاب قبل المُخَاطَب، إذ ليس الحديث العقدي مما يُفرَض على الأذهان أو تُجبَر عليه الأسماع. ويتجلى هذا المنهج في قول رسول الله صلّى الله عليه وسلم فيما روته السيدة عائشة رضي الله عنها: "يا عائشة لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدّم فأدخلت فيه ما أخرج منه وألزقته بالأرض وجعلت له بابا شرقيًا وبابًا غربيًا فبلغت به أساس إبراهيم"[٦] فرغم مكانته

١- (البيهقي ١٩٨٨م، ١٨١/٢)

٢- (السابق ١٨١/٢)

٣- (السابق ١٨١/٢)

٤- (المباركفوري ١٤٢٧هـ، ص٣٦)

٥- (المباركفوري ١٤٢٧هـ، ص٣٦)

٦- أخرجه البخاري في صحيحه (١٥٨٦) كتاب: الحج، باب: فضل مكة وبنيانها، عن عائشة رضي الله عنها بلفظه مرفوعًا. (البخاري ١٤٢٢هـ، ١٤٧/٢)

صلى الله عليه وسلم وأهمية إعادة بناء الكعبة في ذلك الوقت، إلا أنه تجنب المصادمة مع مسلمات القوم وما رسخ في أذهانهم في هذه المرحلة، وفي ذلك يقول ابن القيم: "فهنا ترك ما هو الأولى لأجل الموافقة والتَّأليف، فصار هذا هو الأولى في هذه الحال"[1] ففي المرحلة الأولى للدرس العقدي ينبغي مراعاة السوابق المعرفية، ومحاولة نزع باطلها تدريجيًا من غير استهانة، أو مصادمة حتى ولو كان الحق ظاهرًا جليًا؛ إذ رؤية النور تحتاج إلى عين صحيحة، وإدراك بالتلبس بالظلمة أولًا، وهنا يكون حدوث الموافقة والتآلف أولًا أولى من إظهار الغلبة والإبطال المنطقي لمعتقدات الآخرين، لأن ما يعلق بالقلب لا ينمحي أو يُوجَه إلا من خلاله.

٤- **مراعاة حرية المعتقد:** يستلزم عن التدرج في تغيير السوابق المعرفية للمتلقي، مراعاة حرية المعتقد وهو منهج إسلامي عام، غير منحصر فقط على هذه المرحلة التي نحن بصدد بيان معالمها؛ فزمان الدعوة محدود، والنبي صلى الله عليه وسلم مأمور بتبليغ أهل الأرض، ومع ذلك لم يجبر أحدًا على الدخول في دين الله، لأن باب الاعتقاد هو الاختيار، إذ ربما تُقَهر الحواس وتكون مضطرة للإتيان ببعض الأفعال دون اختيار أحيانًا، ولكن ليس للقلوب والعقول مدخل سوى الإرادة والاختيار. وقد وضح الخالق عز وجل هذه القاعدة في قوله: ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وفي أشد الظروف التي مر بها النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه من صدود وإعراض، وهو يحزن ويقسو على نفسه لرغبته في إيصالهم إلى الهدى، يأتيه الخطاب من رب العالمين: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ**﴾ [الشعراء:٣-٤] فلو شاء الله إيمان الجميع لكان، لكن الأمر إرادة وحرية اختيار، ليتحقق العدل الإلهي، وتتجلى حكمة الله في خلقه؛ ولذلك لما شق على نفسه الشريفة صلى الله عليه وسلم عدم

١- زاد المعاد في هدي خير العباد ١٧٦/٢

إيمان عمه أبو طالب، وقد كان يجله ويحبه كثيرًا، يأتيه الخطاب الإلهي لبيان سريان حكمة الله في الوجود: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص:٥٦] . وقد كان منهجه صلى الله عليه وسلم في التبليغ العقدي مراعيًا لهذه المساحة من الحرية في الإقدام عن طاعة وإرادة، حتى بعد عودته منتصرًا إلى مكة، كان يظن الناس أنه سيخيرهم بين الدخول في الإسلام أو الحرب والقتال، لكنه صلى الله عليه وسلم فاجأهم بمبدأ العفو العام، وإعطاء كامل الحرية لمن أراد أن يعرف الدين ويلحق بالمسلمين، ولذلك كانت النتيجة مضاعفة؛ لأن فتح القلوب كان أهم عنده صلى الله عليه وسلم من فتح المدائن.

هذه هي أهم سمات الدرس العقدي في ذلك العهد المبارك، والتي كانت أساسًا لتشَكُل البناء المنهجي لجميع المراحل اللاحقة.

المطلب الثاني
تطور أدوات الدرس العقدي مع أهل المدينة

ربما يتصور البعض أن طرق تحصيل أو إيصال الثوابت المعرفية واحدة مهما تعددت الأحوال والظروف، وخاصة الجانب الاعتقادي؛ ذلك لأن أصوله ومسائله ثابتة. والحقيقة أنه من الأهمية بمكان أن نشير إلى ضرورة مراعاة اختلاف الظروف الحياتية بجوانبها المتعددة في تطور الأدوات الإقناعية والحوارية وترتيب أولويات الخطاب. فلا شك أن العقائد ثابتة، لكن طرق الوصول إليها يتطلب منهجيات متطورة، تكون وليدة كل عصر، بل وكل فئة من الناس، وهذه من أهم الجوانب التي يسعى هذا العمل إلى توضيحها.

ونجد في تطور أدوات الدرس العقدي في المدينة المنورة خير شاهد على ذلك؛ حيث بدأت تكتمل أركان الدولة الإسلامية، وتتكون قوة داعمة مساندة للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والتي لم تلبث أن تأخذ المنهجية العقدية دورها التأسيسي في هذا الطور الجديد. فكما لا يخفى أن المعتقد هو الدافع الأساس والمحفز الأول في اجتياز هذه المرحلة الصعبة من مراحل الدعوة؛ فمستوى اليقين الذي وصل إليه هذا الجيل بلغ من القوة مرتبةً تَعَجَّب لها العالم أجمع، فأي فلسفة في الحياة تستطيع أن تؤخر محبة النفس للمرتبة الثالثة، وأي نظرية علمية يمكنها أن تقدم جزاءً غائبًا عن متاعٍ مُعَاش؟! إنه الاعتقاد الجازم الراسخ في الأفئدة، الثابت في العقول نتيجة لمنهج نبوي جمع بين العقيدة والتربية، وهو الذي يمكن أن نطلق عليه: منهج غرس العقائد في النفوس، والغرس يحتاج إلى رعي وسقيا، ولذلك استدعى الدرس العقدي تطوير منهجي واستحداث أدوات جديدة لترسيخ العقائد، وكان أهم ما يميزه:

أولًا: تطور النظرة الوجودية للعلاقة بين الحياة الدنيا والآخرة: فمن المعلوم أن الإيمان باليوم الآخر من أركان الاعتقاد، ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في بداية التبليغ يصف الجنة والنار للمسلمين كأنهم يرونهما رأي العين. استدعى الحال في العهد المدني بيان التصور الوجودي لوزن الحياة الدنيا من الآخرة، الذي من لوازمه إدراك حقيقة العلاقة بين الروح والجسد، والتحقق

بيقينية الاعتقاد بالحدوث الذي يتلوه فناء للأبدان وأعراضها، الأمر الذي يستدعي استيعاب معرفي لمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤] وقوله صلى الله عليه وسلم: " مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا."[1]

فواقع حياة الصحابة في العهد المدني، وألوان التضحية والتفاني في خدمة الدعوة لم يكن ليقوم به أي إنسان يتصور وزنًا للحياة الدنيا فوق ما وصفه النبي صلى الله عليه وسلم بأنها الطريق للحياة الباقية. هذه النظرة الوجودية تُرجِمَت إلى أفعال ظهرت جلية في معارك لم تكن لتنتصر فيها أي قوى مع ذلك العدد، وتلك العُدَد الذي تشهد كتب التاريخ والسير أنها بالمقاييس الحربية لم يمكن توقع الغلبة ولا في واحدة منها من حيث التكافؤ المادي، ولكن هذا الرسوخ اليقيني، والنظرة الحقيقية للحياة الدنيا، أعطت المسلمين القوة والثقة بوعد الله عز وجل، استطاعت هذه القوة أن تسبق المقدمات المنطقية والمعطيات الحسية في كثير من المواقف التي استدعت صبرًا لم ليكن ليثَبِتَّه إلا قوة إيمان ويقين؛ فعندما يوشك أن يدخل الإحباط قلوب بعض الناس يوم الخندق، في جو مليء بالصعوبات وقلة المؤن وتربص الأعداء من كل الجهات، وهو صلى الله عليه وسلم معهم، يربط على بطنه الشريف الحجر من شدة الجوع، وكذلك الصحابة الكرام، في موقف جَلَّى القرآنُ الكريمُ وصفَه: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]، وهو صلى الله عليه وسلم قائمًا بين ظهرانيهم يبشرهم بوعد الله تعالى بالنصر، ويضرب الصخرة التي عجزوا عن كسرها ويقول: "اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ السَّاعَةَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّانِيَةَ فَقَطَعَ ثُلُثَهَا الْآخَرَ فَقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ قَصْرَ الْمَدَائِنِ الْأَبْيَضَ، ثُمَّ ضَرَبَ الثَّالِثَةَ وَقَالَ: بِسْمِ

١- أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٧٧) في أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، مرفوعًا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وفي الباب عن ابن عمر وابن عباس، وعقب بأن هذا حديث حسن صحيح (الترمزي ١٩٩٨م، ١٨٦/٤)

اللَّهِ، فَقَطَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ وقَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذِهِ السَّاعَةَ، وَإِنِّي لَأَنْظُرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذِهِ السَّاعَةَ."[1] ففي الوقت الذي كاد يدخل الإحباط قلوب البعض، ويستبعدون تحقق وعد النبي صلى الله عليه وسلم بقولهم: " كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط."[2] ويصفون وعد النبي صلى الله عليه وسلم لهم بالغرور: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً**﴾ [سورة الأحزاب:١٣] في الوقت الذي يقف فيه أصحاب القلوب التي غُرِس فيها الإيمان وأدركت وزني الدنيا والآخرة مصدقة مطمئنةً كما يصف حالها القرآن الكريم: ﴿**وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً**﴾ [سورة الأحزاب: ٢٢] والأمثلة على ذلك كثيرة في كتب السير والتاريخ.

ثانيًا: التداول المعرفي والاستحضار السلوكي لتأثير الفعل الإلهي في الوجود: إن طور الصمود والقوة والتآلف الذي امتاز به العهد المدني حقيق بالاهتمام والدراسة المنهجية من كافة الجوانب، ولا سيما جانب التأصيل العقدي؛ فالترابط المعرفي بين الإيمان بالقدر وإدراك حقيقة تأثير الفعل الإلهي يُنتج نوعًا من الإقدام لا يمكن إخضاعه للمقاييس المعرفية الخالية عن أحد هذين الأصلين. فكثيرًا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يَنهى عن الجدال في القدر حينما يُخضَع القول فيه لقياس الشاهد، لكنه رَبىَ هذا الجيل الأول على التسليم للقدر والثقة في قضاء الله تعالى مهما بدت المقدمات. وليس في هذا فكٌ لباب الترابط السببي أو العادي في الوجود، ولكنه استحضار للفعل الإلهي عند وقوع هذا الترابط، الذي يسبقه يقين وثقة، ويعقبه اطمئنان ورضا.

١- (البيهقي ١٩٨٨م، دلائل النبوة ٣/٤٢١)

٢- (البيهقي ١٩٨٨م، ٣/٤٣٥)

ويتجلى هذا الدرس العقدي التربوي في مواقف متعددة ينبهنا الله عز وجل من خلالها إلى وجوب الاستعداد والأخذ بالأسباب، مع التسليم بوَحدَة الفعل الإلهي؛ فالتأثير العادي لرمي قبضة من حَصْباء الوادي بيده الشريفة صلى الله عليه وسلم يوم بدر لم يكن يُحدِث هذا الأثر إلا بتأثير فعل الله عز وجل: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] ولم تكن قدرة الله لتعجزها القضاء على هؤلاء دون أسباب ظاهرة كما حدث في مواقف أخرى، لكنها التربية العقدية لإحداث هذا الترابط بين أفعال العباد ووحدة الفعل الإلهي في الوجود.

وينتقل هذا الإيمان إلى مرتبة السلوك لدعم التصديق والتسليم بمشيئة الله وقدره: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩] وتتقوى الحواس بدفع القوى الداخلية فيمكن لثلاثمائة أن يغلبوا ألفًا وثلاثمائة في بدر، ويعجب العالم يوم مؤتة حيث يستطيع ثلاثة ألاف أن يتغلبوا على مائتي ألف من أقوى جيوش الأرض في ذلك الوقت. فأي هِمَم يسوقها هذا الإقدام سوى همم من تربوا على هذا النموذج المتكامل من اليقين القلبي والانقياد الفعلي لسنن الله في خلقه مع الاستنارة بهدي الله في استحضار حقيقة فعله في الوجود.

ثالثًا: تأصيل العلاقة التبادلية بين المحبة وصدق الاعتقاد: فأصل الاعتقاد تصديق قلبي، وأعمال الجوارح ترجمة لهذا التصديق ودلالة عليه. لكن الملفت للانتباه هذا الربط بين المحبة وكمال الإيمان: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فالتصديق القلبي لا يحصل له التمام إلا بصدق المحبة. هَذه العلاقة التبادلية تتجلى في قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] فجعل اتباع النبي صلى الله عليه وسلم نتيجة تالية للتحقق بمحبة الله تعالى التي هي مقدم لها في هذا القياس الشرطي، ثم تنعكس المحبة بعد ثبوت علامة اليقين بالطاعة، فتحصل الغاية وهي التحقق بمحبة الله عز وجل. وهذه هي المرتبة التي ينطلق منها المؤمن إلى تطبيق كل ما يليها من مراتب، ولا يجد مشقة في تحصيل الطاعات؛ لأن القلب يصبح هو

القائد لرحلة التكليف، وجميع الجوارح تستجيب خاضعة مطيعة لهذه المضغة الصالحة؛ كما يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

لوكان حبك صادقا لأطعته *** إنّ المحب لمن يحب مطيع[1]

ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم من المحبة أساسًا لكمال الإيمان فقال: "لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتّى أكُونَ أَحَبَّ إلَيْهِ مِن ولَدِهِ ووالِدِهِ والنّاسِ أجْمَعِينَ."[2] وهذا ليس معنى بسيطًا يحصل لأي إنسان، بل يحتاج إلى التحقق والتخلق والممارسة العملية ظاهرًا وباطنًا؛ ولهذا قال أكثر العلماء في معنى: (لا يؤمن): "لا يؤمن الإيمان التام. وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة"[3] وهذه المرحلة من التأسيس العقدي اقتضت تأصيل هذه العلاقة المنعكسة بين المحبة، وكمال الإيمان والتصديق؛ لأن الجهاد المطلوب آنذاك لم يكن مجرد لقاء عدو أو مدافعة معتدي، بل كان جهادًا ضد كل هوى يصد عن الله: من المال والولد والأهل وكل متاع الدنيا، وهذا ما يوجزه قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤] ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تعدى إلى كل ما سوى الله حتى نفس الإنسان التي تصنف في المرتبة الأولى توجه الانطباع الذاتي.

وهذا المعنى الذي قصد أن يعلمنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أنه مقام الصديقين كاملي الإيمان، لما جاءه عمر رضي الله عنه معبرًا له عن بلوغ

---

١ – (م. الشافعي، ديوان الإمام الشافعي ص ٩٦)

٢– أخرجه البخاري في صحيحه (١٥) كتاب: الإيمان، باب: حب الرسول من الإيمان، والحديث روي بلفظه مرفوعًا عن أنس بن مالك رضي الله عنه. حديث صحيح (البخاري ١٤٢٢هـ، ٥٨٣/٢٩)

٣– (شرح محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم، ٦٧/١)

محبته درجة شملت كل شيء عدا نفسه فقال: "يا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن كُلِّ شَيْءٍ إِلّا مِن نَفْسِي، فَقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لاَ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِن نَفْسِكَ» فَقالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الآنَ، واللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن نَفْسِي، فَقالَ النَّبِيُّ □: «الآنَ يا عُمَرُ»."[1] هذه المحبة التي هي أساس صدق الإيمان وكماله تجلت في مواقف مادية ومعنوية لا يملك غير بالغ مقامها سوى التعجب، وهي التي ترتقي حتى تصل إلى مقام الصديقية، الذي وُصِف به أبو بكر رضوان الله عليه، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "أنّ رسولَ اللهِ □ أمرَ بالصَّدقةِ، فقالَ عمرُ بنُ الخطّابِ: وعِندي مالٌ كثيرٌ، فقُلتُ: واللهِ لأُفضلنَّ أبا بَكْرٍ هذِهِ المرَّةَ. فأخَذتُ نِصفَ مالي وترَكْتُ نِصفَهُ، فأتَيتُ بِهِ النَّبيَّ □، فقالَ: هذا مالٌ كثيرٌ، فما ترَكْتَ لأَهْلِكَ؟. قالَ ترَكْتُ لَهُم نصفَهُ. وجاءَ أبو بَكْرٍ بمالٍ كثيرٍ، فقالَ رسولُ اللهِ ما ترَكْتَ لأَهْلِكَ؟، قالَ: ترَكْتُ لَهُمُ اللهَ ورسولَهُ."[2] فإن مجرد العطاء يحتاج إلى قوة في مواجهة طبيعة النفس في الإمساك وإيثار الذات، لكن أن يبلغ العطاء هذا المقام فمما لا يدرك إلا من منظور التأصل العقدي الذي ينتج التحقق بصدق المحبة، فتترجم إلى مثل هذه الممارسات الخلقية التي لا يملك من لا يدرك مقامها إلا العجب، أو الإعجاب الداعي إلى التحقق والاقتداء. والكلام في هذه الناحية يحتاج لدراسة مستقلة.

رابعًا: إحياء الجانب التطبيقي للإيمان بجميع الأنبياء: فلطالما يردد المسلم قول الله تعالى: ﴿**ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ**﴾ [البقرة ٢٨٥] ويدرك أنَ التصديق بالرسل السابقين ركن من الإيمان، لكن ممارسة هذا المعنى في الحياة وفي التعامل مع أهل الأديان الأخرى احتاج إلى ترسيخ وتربية. فحياة النبي صلى الله عليه وسلم هي النموذج العملي والتطبيقي لمبادئ المعاملات بشتى

١- أخرجه البخاري في صحيحه (٦٦٣٢) كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي صلى الله
عليه وسلم، حديث صحيح. (البخاري ١٤٢٢هـ، ١٢٩/٨)
٢- (ابن كثير ٢٠٠٩م، مسند الفاروق ٣٩٤/١)

أنواعها، وأبرز شاهد على أن القرآن الكريم هدي منهجي تفاعلي أكثر منه قواعد نظرية أو قوانين وردت في أسباب خاصة.

ولقد كان العهد المدني واقعًا عمليًا لتطبيق هذه العقيدة، خاصة حينما أُمِر المسلمون بدعوة أهل الأمصار على اختلاف ثقافاتهم، وتعدد عقائدهم. وهنا استطاع الصحابة الكرام رضوان الله عليهم توظيف هذه العقيدة بشكل مثمر ظهرت أثاره في دخول الكثير من أهل الأديان الأخرى للإسلام، مع احتفاظهم بمقام أنبيائهم، مؤمنين بسريان الهدي الإلهي للإنسانية، مُسَّلِمين باجتماع كل معاني التقديس وتجلي الأصول الإيمانية في هذا الدين الخاتم، وذلك النور الجامع المتمثل في رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذي يؤسس لمبدأ احترام معتقدات الآخرين، ومراعاة قدسية مسلماتهم، والانطلاق من الثوابت الإنسانية، والأصول العقدية لتصحيح ما بقي في الأذهان وران على القلوب من المؤثرات السياسية والاجتماعية وغيرها.

وشواهد ذلك كثيرة ازدانت بها كتب السير؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم يخاطب النجاشي بتسليمه بهذه العقيدة التي تزيل حاجز الاختلاف، وتمهد للانتباه إلى وحدة المُرسِل سبحانه فيقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، إني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى حملته من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وقد بلغت ونصحت فأقبلوا نصحي .."[1] كما نجده صلى الله عليه وسلم في كثير من مشاهد دعوته يبرز المشتركات العقدية؛ حتى في أشد الأوقات صعوبة على نفسه صلى الله عليه وسلم حينما رفضه أهل الطائف فأغروا به سفهائهم وعبيدهم يسبونه ويؤذونه ويقذفونه بالحجارة، وإذ هو صلى الله عليه وسلم يأوي إلى حائط لبني ربيعة، إذ يأتيه هذا الغلام النصراني "عداس" بقطف من عنب، وهو صلوات ربي وسلامه عليه لم يكف عن الدعوة حتى في هذه اللحظات العصيبة، مطبقًا هذا المبدأ

١ – (القسطلاني، المواهب اللدنية ٥٤٣/١)

محييًا روحَ التآلف الإنساني، ملتمسًا لثبوت الأصل العقدي المشترك، حينما يسأله عداس عن منشأ طبيعة حديثه الذي لا يشبه حديث أهل البلاد في ذلك الوقت، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يرجع هذا التأصيل إلى وحدة الهدي الإلهي بقوله: "«من أي البلاد أنت؟ وما دينك؟» قال: أنا نصراني، من أهل (نينوى). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟» قال له: وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذاك أخي، كان نبيا وأنا نبي»[1]، فأكب عداس على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويديه ورجليه يقبلها" فكأنه صلى الله عليه وسلم بهذا التمهيد يفتح بابًا من المشاركة الفكرية، فيذيب حاجز الإنكار دون كسر لمسلمات المخاطب وقناعاته. وهذا كان شأن خطاب الصحابة الكرام مع أهل الكتاب عند دعوتهم إلى دين الله.

هذه الأدوات المعرفية والتطبيقية كانت وليدة مراعاة حال الدعوة في ذلك الوقت، واستشعارًا لحاجات الواقع على المستويين الفردي والجماعي. ومن الجدير بالذكر أن هذا المنهج النبوي لم يكن آنيًا أو موقوفًا على أهل ذلك الزمان، ولكن مثله كمثل المبادئ الإسلامية العامة التي تُوَظف في ضوء الهدي النبوي في كل زمان حسب ما يقتضيه المقام.

١ – (المباركفوري ١٤٢٧هـ، ص ١١٤)

المطلب الثالث
تجدد التداولية بتسيس الأحكام العقدية

انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى وقد ثبَّت أصول العقائد منهجًا وتطبيقًا، ولم يترك شيئًا من أسس الاعتقاد إلا وأجلى بيانها وتأصيلها: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة ٣] وسيرته صلى الله عليه وسلم كانت ميدانًا عمليًا لآليات الدرس العقدي ومنهجياته المتعددة. فقد استطاع النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا الجيل المبارك من الصحابة الكرام أن يؤسس للمنهج الأولي في الاستدلال على العقائد؛ فقد كان الوحي هو المرجع الأساس لكل الأصول العقدية التي تتنزل عليه في سياق من التأسيس العملي التربوي. ولم يكن يشغل هؤلاء البحث عن طرق للاستدلال بقدر ما كان يشغلهم التلقي والتصور، فأي منهج يبحثون عنه وهم في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم، ويأتيهم جبريل يحادث النبي في مشهد عملي على مرأى ومسمع منهم، ثم يقول لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: " هَلْ تَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟ هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكمْ ليعَلِّمَكُم دِينَكُمْ، خُذُوا عَنْهُ.."[1]. وأي وسيلة أخرى لحصول اليقين أكثر من أنه صلى الله عليه وسلم يحادثهم عن جنة ونار رآهما عيانًا ويصف أحوال أهلهما، ويحدثهم عن أحوال بعضهم في الجنة، فينظرون إلى الدنيا من نافذة الآخرة، وليس العكس.

لكن بعد هذا الطور من العملية ومن التلقي المباشر، وبداية مرحلة جديدة من الاستقلال والمواجهة الفكرية، كان لابد من حدوث صدمة أبستمولوجية في بداية الأمر، فرغم أن النبي صلى الله عليه وسلم ربى هذا الجيل على الاجتهاد والاستقلال الفكري، وأنه بإعلان القرآن الكريم الانتقال من دور الصحبة إلى دور التطبيق والاستنباط والاجتهاد انطلاقا من حصول الكمال

---

١ – (السيوطي ٢٠٠٥، جمع الجوامع ص ٥٨٣)

النظري والعملي: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة ٣] إلا أن هذا لم يمنع من حدوث هذه الصدمة التي أخذت مراحل مختلفة في تجاوزها: فقد تخطاها البعض سريعًا كأبي بكر وفاطمة؛ لاستيعابهم قرب فراق النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، والبعض الأخر تجاوز هذه الصدمة بمجرد سماعه لكلام الصديق رضي الله عنه يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهو يتلو عليهم الآيات: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران ١٤٤]، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر ٣٠]، وقولته المنبهة بحقيقة الانتقال من مرحلة إلى أخرى، وجوديًا ومعرفيًا: "يا أيها الناس، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت."[1] وأوضح شاهد على قدرة الكثير على تجاوز هذه الصدمة وإدراكهم لحقيقة هذه المرحلة الانتقالية قول البعض وفي مقدمتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "فوالله لكأنِّي لم أتل هذه الآيات قط"[2] ولا شك أن التمكن من تجاوز هذه الصدمة قد استغرق زمانًا أطول مع البعض الأخر، الأمر الذي اقتضى أن يقود الصديق هذه المرحلة بثبات ويقين وحكمة اقتضاها الحال آنذاك.

وكان هذا المشهد عند تلقي خبر وفاة النبي صلى الله عليه وسلم صورة مختصرة لتصور الحياة الفكرية بعد ذلك، عندما بدأ الخلاف، واستجدت مسائل جديدة لم تكن تظهر في حياة النبي صلى الله عليه وسلم. إلا أن هذا الجيل استطاع أن يقدم أنموذجًا عمليًا لممارسة الدرس العقدي ممارسة منهجية مع غياب النموذج الحي وبقاء المنهج والدعائم التي علمهم إياها صلى الله عليه وسلم وتركها أصلًا يُعَمل به في كل زمان ومكان، حيث يقول

١ – (الزرقاني ١٩٩٦، شرح الزرقاني على المواهب اللدنية ١٣٨/١٢)
٢ – (الزرقاني ١٩٩٦، ١٣٨/١٢)

صلى الله عليه وسلم: "تركتُ فيكم أَمْرَيْنِ لن تَضِلُّوا ما تَمَسَّكْتُمْ بهما: كتابَ اللهِ وسُنَّةَ نبيِّهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ"[1]

والقارئ للتاريخ الإسلامي يلاحظ اصطباغ المشهد الفكري بالصبغة السياسية، بسبب إثارة مسألة أحقية الإمامة، التي استُغِلَت على كافة المستويات الداخلية والخارجية، الفكرية والسياسية والاجتماعية، خاصة بعد استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وحدوث الفتنة الكبرى. فبدأت تتناول القضايا العقدية بتوصيف جديد لم يكن معهودًا من قبل، من خلال تسيس أهم أصل عقدي وتناوله أداةً للنزال الفكري المؤدي إلى الإقصاء المعرفي والديني لمناهج فكرية معينة، الأصل فيها التوجه السياسي في ذلك الوقت، ولم يكن الخلاف السياسي كأي خلاف بين تيارين سياسيين يتغلب أحدهما على الآخر، وينتهي الصراع بمجرد تولي أحدهما مركز الأمر المتنازع حوله، لكن مصدر خطورة هذه المرحلة يكمن في أن الإيمان كان هو معيار الحكم على كل فريق: "فلم تتخذ الأحزاب هذا الشكل السياسي البحت، بل اصطبغت صبغة دينية قوية، وصار كل حزب سياسي فرقة دينية، وصار الذين يقتتلون سياسيّا يقتتلون دينيًا، وبدل أن يسمى الحزب اسمًا سياسيًا يدل على المبدأ السياسي الذي يدعو إليه تسمى اسمًا يدل على المذهب، الديني: كشيعة وخوارج ومرجئة، وبدل أن يتحاجوا بما ينتج عن أعمالهم من مصالح ومفاسد تحاجوا بالكفر والإيمان والجنة والنار"[2] ومن هنا بدأ الدرس العقدي يأخذ سمت المحاجة والجدال، وبدأت بعض القضايا العقدية تتناول بشكل مختلف عما كانت عليه من قبل؛ كقضايا مرتكب الكبيرة، والقضاء والقدر، ودخلت مسألة الإمامة أبواب الدرس العقدي بعدما كانت ذا أبعاد سياسية واجتماعية.

---

١ – أخرجه مالك في الموطأ (١٨٧٤) كتاب: الجامع، باب: النهي عن القول بالقدر. (٧٠/٢)

٢ – (أمين ٢٠١٢، ضحى الإسلام، ص٦٨٠–٦٩٠)

فلم تكن ممارسة سلوكية تمثل معيارًا للإيمان والكفر مثل ما حدث في مسألة مرتكب الكبيرة، والنزاع الكبير الذي دار حول تحرير مفهومها، وانطباق ماصدقها في الواقع، وأضحت تستخدم بين الفرق بديلًا عن السيف والمنازلة الميدانية في ساحة القتال، خاصة بعدما أثارها الخوارج* بعد قبول التحكيم، ولم يسلم منها حتى علي رضي الله عنه.

وارتبط بذلك مسألة القدر والعلاقة بين أفعال الله وأفعال العباد، فكما يذكر الشيخ أبو زهرة: "كان الكلام في القدر يشتد كلما اتسع نطاق الفتن"[1] وأظن في هذا الارتباط منحى فكري يوحي بانتباه المستدل بالقدر إلى الخطأ، أو مظنة الوقوع في الخطأ؛ لأنه كما هو واضح من الأحداث التي تدونها كتب تاريخ الفرق عن مشاهد الاحتجاج بالقدر خاصة في أيام علي رضي الله عنه، نجدها سعيًا للخروج من مأزق المخالفة لأحد الفريقين، سيما وأن الخلاف في ذلك الوقت كان فتنةً حقيقية، وليس أدل على ذلك من حوار علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع السائل الشامي حينما سأله عن خروجهم إلى الشام ولقاء جيش معاوية: "أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره؟"[2] ليعيد علي رضي الله عنه أصل مفهوم القدر في ذهن السائل قائلًا: "ويحك! لعلك ظننت قضاءً لازمًا وقدرًا حاتمًا، لو كان ذلك كذلك لبطل

---

* – الخوارج: هم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في صفين بعد قبول التحكيم؛ ولذلك سموا بالخوارج، وأجمعت الخوارج على إكفار علي بن أبي طالب –رضوان الله عليه– لقبوله التحكيم. وهم مختلفون هل كفره شرك أم لا، وأجمعوا على أن كل كبيرة كفر إلا "النجدات" فإنها لا تقول ذلك. وكبار الفرق منهم: المحكمة، والأزارقة، والنجدات، والبيهسية، والعجاردة، والثعالبة، والإباضية، والصفرية، والباقون فروعهم. ويجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي رضي الله عنهما، ويقدمون ذلك على كل طاعة، ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك. ينظر: (الشهرستاني ١٤٣١هـ: الملل والنحل ١١٥/١)، (الأشعري١٤٢٦هـ، مقالات الإسلاميين ٨٤/١)

١ – (أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية ص٩٦)

٢ – (المدائني، شرح نهج البلاغة ١٠٧/١٨)

الثواب والعقاب، وسقط الوعد والوعيد."[1] وهذه أحد الحكم التي لأجلها نهى النبي صلى الله عليه وسلم من فتح باب الخوض في القدر خاصة في مثل هذه السياقات.

الواقع المعرفي إذن استدعى انصباغ الدرس العقدي بالصبغة السياسية، وتحول أساس التناول المنهجي من الغرس والإثبات، إلى إعادة تحديد المفاهيم، وتبادل إطلاق الأحكام، سواء بهدف إخماد الفتن، أو إثارتها من جانب البعض.

١ – (المدائني ١٠٧/١٨)

المبحث الثاني
الدرس العقدي وعلم الكلام

يُعَد الاستخدام المنهجي لمصطلح علم الكلام* تَشَكُّلًا جديدًا لطبيعة الدرس العقدي بدأ على أغلب الآراء في العصر العباسي، إذ لا نستطيع أن ننفي وجود أدوات للاستدلال على العقائد ورد الشبه عنها قبل ذلك العصر، فقد سبق أنه حتى في العهد النبوي كانت ترد النقاشات التي تحتاج إلى رد نقلي أحيانًا، وعقلي أحيانًا أخرى، والشواهد في القرآن الكريم على ذلك كثيرة:

كما في احتجاج المشركين بالقدر على عدم إيمانهم برسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، فيجيبهم القرآن الكريم بمنع هذه الدعوى وطلب الدليل عليها بدلًا من الاعتماد على الظن الذي أوقع من سلك نفس الطريق من قبلهم في الضلال المعرفي والهلاك المصيري: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وكما في إنكار البعض للبعث مستشهدين بأحوال العالم المشاهد، مستبعدين مجرد الإمكان العقلي، كما يصوره مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨] فيجيبهم عز وجل بقياس يؤسس للإمكان العقلي: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩]، ثم يقدم لهم ما طلبوه من الأقيسة الحسية في العالم المشاهد: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلۡأَخۡضَرِ نَارٗا فَإِذَآ أَنتُم مِّنۡهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، وفي سلسلة متتالية من تنوع الاستدلال على هذه العقيدة المهمة وهي عقيدة البعث إمكانًا ووقوعًا، يؤسس القرآن الكريم لتعددية

---

* – من حيث التعريف التداولي للعلم بأنه: علمٌ يقتدر معه على إثبات العقائد الدينيّة، بإيراد الحجج، ودفع الشبه. ينظر: (الإيجي ١٩٩٧، المواقف ص٣١)

المناهج في إثبات الأصول وفي رد الشبه عنها؛ فيأتي قياس الأولى قاطعًا طريق أي شائبة شك ترد على تأثير قدرة الله تعالى وفعله في خلقه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، ويختتم الجواب بإيضاح قاعدة جامعة تنفي أي مثيل لهذه الشبهة وتبين مغالطة أي تصور لمحدودية الفعل الإلهي بعالم الخلق: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢-٨٣]

والقرآن الكريم زاخر بألوان متعددة من طرق الاستدلال على العقائد الإيمانية، وتأصيل لمنهج رد الشبهات مهما كان موردها ومقصدها. وفي ذلك الوقت استجدت كثير من الظروف الداخلية والخارجة التي استدعت تحديث طبيعة الدرس العقدي استنادًا إلى هذا المنهج القرآني، وامتثالًا للتداول النبوي لأدوات الاستدلال، فتشكلت نواة علم الكلام بمدارسه المتعددة.

المطلب الأول: معالم الدرس العقدي بمدرسة الاعتزال

مما لا شك فيه أن مدرسة الاعتزال أخذت حظها من الدراسات النقدية، أكثر ما أخذت من الدراسة الموضوعية. وأرى المقام يستدعي تسليط الضوء على منهج المعتزلة من جانب مختلف، وهو جانب النوازل الفكرية، فبإمكاننا أن ننظر إلى التنوع المذهبي في الفكر الإسلامي من زاوية مراعاة المقام إثباتًا ودفاعًا حسب ما يتطلبه الواقع المعرفي في كل زمان؛ فالمدارس والفرق الإسلامية العقدية يمكن تصنيفها من هذه الجهة إلى ثلاثة أصناف حسب المنهج:

الأول: منهج يعمد بشكل مباشر إلى إيصال الحقائق، فيحصر مهمته في "التبليغ" بمعنى أن يقوم علم العقيدة بدور الناقل للعقائد كما وردت في النصوص الدينية، ويكلف نفسه مهمة "حمل" الألفاظ والعبارات كما هي، دون أي محاولة للتفتيش عن معانيها، أو إعمال العقل في التقصي عن مقاصدها وفهم مراميها. والمنشأ الأساس لهذا المنهج هو الحفاظ على أصول العقائد من أن ينالها خطأ الاجتهاد، أو يعتريها شيء من التصور البشري، فيترتب عليه هدم الأساس الذي ينبني عليه جملة الدين، وهو العقيدة. ويستند أصحاب هذا المنهج على ما سلكه أهل الصدر الأول: "فإن الصدر الأول إنما صار إلى الفضيلة الكاملة والتقوى باستعمال هذه الأقاويل دون تأويلات فيها، ومن كان منهم وقف على تأويل لم يرَ أن يُصَرِح به.. فإن الأقاويل الموضوعة في الشرع لتعليم الناس، إذا تؤملت يشبه أن يبلغ من نصرتها إلى حدٍ لا يخرج عن ظاهرها ما هو منها ليس على ظاهره، إلا من كان من أهل البرهان"[1] وفي سبيل ذلك رفع هذا المنهج شعار الحذر والحيطة، وتسلح بالعديد من الأسلحة التي ظن أنها تحمي سياج العقيدة من أن تدخله أدوات بشرية ربما تزلزل أصول هذا البناء المتين فتودي به في جملته، فوضعوا

١ – (ابن رشد، فصل المقال ص٦٥)

حدودًا وأقاموا أسوارًا لهذا البناء العظيم تُدخِل مَنْ فيها بمسمى الإيمان، وتُخرِج غيرَه بغيرِه.

والثاني: منهج إثباتي، جعل مهمته الأولى "إثبات" العقائد؛ فسلك طريق تطوير وتجديد طرق الاستدلال وأدواته كلما اقتضى الحال، واضعًا نصب عينه ثبات الأصول والحفاظ عليها. ومن أشكال التجدد في هذا المنهج قيامه بمهمة الدفاع عن العقائد حينما استدعى الأمر مواجهة الشبهات، واستخدام الأدوات العقلية في مواجهة الوقائع المستجدة، وذلك بعد كمال تَشكُل الأصول وثباتها. وهذا أكثر المناهج استمرارية ومرونة عبر الأزمان؛ ولعل من أسباب ذلك ما ذكره الدكتور حموده غرابه: "أنه مذهب يُرضِي خاصة الأمة، ولا يصعب على عامتها."[١] والمنهج المعتدل الذي سلكه أصحاب هذا المنهج وعملوا على تطويره عبر العصور هو سر استمراريته، وهيمنه على كثير من المؤسسات العلمية على مستوى العالم.

أما الثالث: فهو المنهج الدفاعي، الذي يُصنَف تحت دائرة الحاجة عند نزول الطوارئ الفكرية. تكونت أركان بنيته المعرفية كرد فعل دفاعي ضد الشبه التي أثيرت على العقائد أصولًا وفروعًا في الوقت الذي أَصَّل فيه لمنهجه وأرسى قواعده، فهو منهج دفاعي جدلي أكثر منه تأصيلي إثباتي.

هذا الجزء من التراث الإسلامي الذي يُلجَأُ إليه عند الضرورة تمثله مدرسة الاعتزال، التي قامت بدور كبير في عصرٍ استدعى واقعُه المعرفي إحياءَ المنهج العقلي في الدفاع عن الأصول العقدية في وقت تداخلت فيه التوجهات، وتعددت النقاشات الدينية بين أهل الأديان والمذاهب المختلفة فوجدوا في العقل قاسمًا مشتركًا وأداة يمكن الاعتماد عليها، ويصعب مخالفتها. ومهما يكن من اتفاق أو اختلاف في منهج المعتزلة، فلا يمكن

١ – (مقدمة د. حمودة غرابة على اللمع للأشعري ص٥)

إنكار هذا الدور الكبير الذي قاموا به في سد هذه الثغرة قبل أن تتسع، ولهذا لقى دعمًا كبيرًا من القوى السياسية في ذلك الوقت.

والحقيقة أن مدرسة الاعتزال في أصل نشأتها – والتي تشكل من خلالها الدرس العقدي في شكله النظامي – تميزت بمنهج عقلي منتظم، استطاعت من خلاله أن تقيم أسسًا لبناء معرفي واضح المعالم يصعب على من اتبعه أن يحيد عنه، أو يشذ برأي خلاف ما تأصل ضمن الإطار العام للمذهب، وأهم المعالم التي تميز بها الدرس العقدي بمدرسة الاعتزال:

أولًا: التقعيد والتأصيل: فإنه يرجع الفضل للمعتزلة في قضية تقعيد أصول المذهب، حيث شكلت الأصول الخمسة (التوحيد – العدل – الوعد والوعيد – المنزلة بين المنزلين – الامر بالمعروف النهى عن المنكر)[1] أركان البناء المنهجي لديهم. والناظر في كل واحدٍ من هذه الأصول يجد له منشأ دفاعيًا ضد شبهة أثيرت، أو ردًا وإبطالًا لأحد المذاهب والآراء التي لو فتح لها الباب في ذلك الوقت لكادت أن تزعزع الثبات المعرفي الذي لم يلبث المجتمع المسلم أن يتنفس روحه بعد توارد الفتن على الأمة الإسلامية في فترات متلاحقة. واعتبروا هذه الأصول أسسًا جامعة لمسمى الاعتزال، ليس لمنتمي إليه ألا يعتقد بواحد منها. وقد استفاد واقع الدرس العقدي من هذه الطابع المنهجي الجديد، وبدأ الاهتمام بالتأصيل المنهجي يشغل حيزًا من التراث الكلامي منذ أن وضع المعتزلة أصوله الأولى.

ثانيًا: منهج الدفاع ورد الشبه: وهذا منهج واضح منذ بداية نشأة المعتزلة، وهو أحد الأسباب الداعية إلى تبني أسلوب التأصيل العقدي المشار إليه، وذلك من خلال تشييد أصول مُحكَمَة تحيط بالعقائد كالأسوار المانعة من دخول أي شبهة، والمدقق في كل أصل من أصولهم، وكيف عملوا على

---

١ – لتفصيل الأصول الخمسة لدى المعتزلة، ينظر: (القاضي عبد الجبار ١٩٩٦، شرح الأصول الخمسة)

إحكامه وغلق أبواب كثيرة – ربما يجدها من ينظر إليها بعين زمان أخر حصرًا لحرية الاستدلال أو تعديًا على أولوية النصوص– لكن المطلع إليها في سياقها المعرفي والتاريخي المتكامل يحكم أنها من ضرورات العصر الدفاعية، وأن هذا المنهج التأصيلي يمكن الاعتماد علي أصوله المنهجية عند النوازل الفكرية. وإذا أخذنا مثالًا على ذلك بالأصل الأول والأهم لديهم وهو التوحيد لرأينا كيف أحكموا التعبير لنفي أي مماثلة أو مشابهة قد تؤدي إلى أي خرق لمفهوم التوحيد الذي نسجوه بناء على قوله تعالى: ﴿**لَيسَ كَمِثلِهِۦ شَيءٞ**﴾ [الشورى: ١١] ، مما يوضحه أحمد أمين في قوله: " وقد كانت نظرتهم في توحيد الله نظرة في غاية السموّ والرفعة، فطبّقوا قوله تعالى: ﴿**لَيسَ كَمِثلِهِۦ شَيءٞ**﴾ أبدع تطبيق، وفصّلوه خير تفصيل وحاربوا الأنظار الوضعيّة من مثل أنظار الّذين جعلوا الله تعالى جسمًا.. فأتى المعتزلة وسموا على هذه الأنظار، وفهموا من روح القرآن تجريد الله عن المادية، فساروا في تفسريها تفسيرًا دقيقًا واسعًا، وأولوا ما يخالف هذا المبدأ، وسلسلوا عقائدهم تسلسلا منطقيًا."[1] فطبيعة الدرس العقدي في مدرسة الاعتزال لا يمكن تعميمه أو اعتماده كمنهج عام يقوم بدوري علم الكلام؛ من ناحيتي إقامة الحجج ودفع الشبه، ولكنه في الحقيقة منهج دفاعي يؤصل لآليات دفع الشبه حسب طبيعة مصدرها.

ثالثًا: اعتماد العقل مشتركًا حواريًا عند الاختلاف: الحقيقة أن القارئ لمذهب المعتزلة ضمن إطاره التاريخي يمكنه أن يجد إجابات متعددة للعديد من التساؤلات التي ترد عليه في ثوب التهم والمخالفات المنهجية، ومنها مسألة الاعتماد على العقل وتحكيمه عند الاختلاف. ولا يسع المقام تفصيل الحديث عن نشأة المعتزلة والتحديات المختلفة التي واجهتها الأمة الإسلامية في ذلك الوقت، إلا أن الأمر الواضح هو أن مواجهة العديد من التيارات والمعتقدات تطلب الانطلاق من مسلمات مشتركة، والبحث عن وسيلة حوار

١ – (ضحى الإسلام ص ٢٣٧)

ومناقشة لا يمكن للخصم الاعتراض على مصدرها، وهذه الظروف يوجزها الشيخ أبو زهرة في قوله: "دخل الإسلام طوائف كثيرة من المجوس واليهود والنصارى وغير هؤلاء، ورؤوسهم ممتلئة بكل ما في هذه الأديان من تعاليم جرت في نفوسهم مجرى الدم، ومنهم من كان يُظهر الإسلام ويُبطن غيره، إما خوفا ورهبة، أو رجاء نفع دنيوي، وإما بقصد الفساد والإفساد، وتضليل المسلمين، وقد أخذ ذلك الفريق ينشر بين المسلمين ما يشككهم في عقائدهم، وظهر ثمار غرسهم في فرق هادمة للإسلام تحمل اسمه ظاهرا وهي معاول هدمه في الحقيقة، فظهرت "المجسمة"[*] و"الرافضة"[**] التي تقول بحلول الإله في جسم بعض الأئمة، و"الزنادقة"[***]. وقد تصدى للدفاع عن الإسلام أمام هؤلاء فرقة درست المعقول وفهمت المنقول، فكانت المعتزلة، تجردوا للدفاع

---

* – المجسمة أو المشبهة: هم الذين يقولون إن الله جسم، ويتعللون بأن الله موجود، وكل موجود محدود، واستندوا على ظواهر بعض الآيات التي تثبت لله اليد والوجه.. وغيرها. وقد تصدى علماء الكلام للرد عليهم وإبطال شبههم. ينظر: (الشهرستاني ١٤٣١هـ، الملل والنحل ١٨/١)، (أبو الحسن الأشعري، ١٤٢٦هـ، مقالات الإسلاميين ٣٨٣/٢)

** – الرافضة: هم واحدة من فرق الشيعة المغالية التي ترفض إمامة الشيخين أبي بكر وعمر، ولقد غالوا في كثير من المعتقدات منها تشبيه الإله بالمخلوقات ووصفه – حاشاه – بالجسمية والجهة.. وغيرها. ولقد حفلت كتب الفرق الإسلامية بإبطال مزاعمهم والرد عليها. ينظر: مقالات الإسلاميين ٤٤/١، الملل والنحل ١٦٠/١

*** – الزنادقة أو الزنديقية: من فرق أهل الغلو، رفضوا تعاليم الدين بحجة تحرير الفكر، ونفوا الربوبية عن الخالق، وقالوا ليس لأحد أن يثبت لنفسه رباً، لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس وما يُدرك ليس بإله، وما لا يدرك لا يثبت. ويزعمون أن العالم لم يزل موجودا كذلك بنفسه لا بصانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، وكذلك كان، كذلك يكون أبداً. (الحفني، عبد المنعم ،١٩٩٣ الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية ص٢٣٥)

عن الدين، وما كانت الأصول الخمسة التي تضافروا على تأييدها، وتأزروا على نصرها إلا وليدة المناقشات الحادة التي كانت تقوم بينهم وبين مخالفيهم"[١]

ولا شك أن المعتزلة في تطور تاريخهم المعرفي قد بالغوا في استخدام العقل ورفع حدود حاكميته، ووقعوا في خطأ كبير، أو "قاتل" كما يصفه أستاذنا الدكتور الشافعي:" وكان الخطأ القاتل بالنسبة للمعتزلة هو استخدامهم للسلطة العباسية في إلزام خصومهم بآرائهم، في حلقات السياط والتعذيب بدلًا من حلقات الحوار والجدل."[٢] ورغم أن هذه الحقبة التي اتبعوا فيها هذا النهج القاسي كانت محدودة لما اشتد الحال وصعبت السيطرة على الأمور، إلا أنه كان أحد الأسباب التي غلبت على ذاكرة الناس من اسم المعتزلة. ومع كل ذلك ليس لنا أن ننكر الدور الذي قام به هذا المنهج في اعتماده على العقل في الدفاع عن العقائد، ومناقشة المخالف في ذلك الوقت وكيف كان مظهرًا جليًا لمراعاة المقام، وهذا مما يحمده التاريخ لهذه الفرقة.

١ – (أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية ص ١٢٤–١٢٥)

٢ – (المدخل إلى دراسة علم الكلام ص٧٩)

المطلب الثاني: المذهب الأشعري وليد لمراعاة المقام

إن الفرق الإسلامية لم تختلف على أصل من أصول الدين، كما هو معلوم، ولكن نشأت أكثر اختلافاتهم من تعدد طرق الاستدلال الذي يترتب عليه في كثير من الأحيان اختلافات في بعض المسائل التي لا تضر بأصل الاعتقاد. ومما لا شك فيه أنه كان للسياقات التاريخية والأحداث السياسية دخل كبير في تشكل المذاهب وتطورها على مدار التاريخ، وأنه لم يجد الكثير من أعلام المذاهب إشكالية في التسليم بنفس نتائج مذهب أخر مع اختلافه في منهجية الوصول إليها؛ ويمثل ذلك المناظرة التي دارت بين أبي علي الجبائي* وأبي الحسن الأشعري**: فقد روي أنه "دخل رجلٌ على الجبائي فقال:

---

* – أبو علي محمد بن عبد الوهاب بن سلام بن خالد بن جمران بن أبان، مولى عثمان بن عفان، رضي الله عنه، المعروف بالجبائي أحد أئمة المعتزلة، كان إماما في علم الكلام، وأخذ هذا العلم عن أبي يوسف يعقوب بن عبد الله الشحام البصري رئيس المعتزلة بالبصرة في عصره، وله في مذهب الاعتزال مقالات مشهورة، وعنه أخذ الشيخ أبو الحسن الأشعري شيخ السنة علم الكلام. وهو الذي ذلّل علم الكلام، وسهّل ويسّر ما صعب منه، وإليه انتهت رياسة المعتزلة في زمانه. وله العديد من المؤلفات منها: الأصول في شرح الحديث، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤)، وكتاب التعديل والتجوير، وكتاب الاجتهاد، وكتاب الإمامة. ت ٣٠٣هـ ، عن ثلاث وسبعين سنة. انظر: (السَّاعي ٢٠٠٩ : الدر الثمين في أسماء المصنفين ص١٦٦)، (ابن خلكان ١٤٣١، وفيات الأعيان ٢٦٧/٤)

**– علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي أبي موسى الأشعري: مؤسس مذهب الأشاعرة. كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين. ولد في البصرة. وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم. قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمئة كتاب، منها " إمامة الصدّيق " و " الرد على المجسمة "، " مقالات الإسلاميين، و "الإبانة عن أصول الديانة"، " مقالات الإسلاميين " و" استحسان الخوض في الكلام "، " اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع.. وغيرها. مات ببغداد سنة ٣٢٤هـ. ينظر: (الزركلي، الأعلام ٢٠٠٢ ٢٦٣/٤)

هل تجوز تسمية الله عاقلاً؟ فقال الجبائي: لا، لأنّ العقل مشتق من العقال، وهو المانع، والمنع في حقّه سبحانه محال، فامتنع الإطلاق. فقال له الشيخ أبو الحسن: على قياسك لا تجوز تسميته حكيماً، لأنّ هذا الاسم مشتق من «حكمة اللجام» وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج.. فإذا كان اللفظ مشتقاً من المنع، والمنع علي الله محال، لزمك أن تمنع إطلاق «حكيم» عليه سبحانه. فلم يجد الجبائي جوابًا، وسأل الأشعري: وما تقول أنت؟ قال: أجيز حكيمًا، ولا أجيز عاقلا ... لأن طريقي في مأخذ أسماء الله السماع الشرعي، لا القياس اللغوي، فأطلقت حكيمًا، لأن الشرع أطلقه، ومنعت عاقلا، لأن الشرع منعه، ولو أطلقه الشرع لأطلقته."[١]

وأقرب ما يعرفنا بحقيقة المذهب الأشعري، وكيف أنه منهج متجدد منذ نشأته وحتى وقتنا الحاضر، هو أن أبا الحسن الأشعري كان من أئمة المعتزلة: "وَكَانَ أَولا قد أَخذ عَن أَبى على الجبائي وَتَبعهُ في الاعتزال، يُقَال أَقَامَ على الاعتزال أَرْبَعِينَ سنة حَتَّى صَار للمعتزلة إِمَامًا."[٢] إلا أنه لم يلبث أن "انخلع" من حصيلة أربعين عامًا من التأسيس الفكري لما تبينت له الحقائق بنظرة أوسع، ووجد أنه ليس من الحكمة في منازلة الخصوم الاقتصار على أدواتهم والخوض في مناهجهم بغية إقناعهم والأخذ بأيديهم إلى طريق الحق، سيما لو انقلب الحال إلى اعتماد مطلق مناهجهم أدوات حصرية للبرهنة على العقائد، وليس فقط لدفع الشبه عنها. هنا يقف أبو الحسن الأشعري معلنًا أصالة الوحي ومعاونة العقل له، وليس العكس، وأنه ليس لأحدهما أن يُكذِبَ الآخر أو ينكر مسلماته. ولا شك أن الأشعري قد استفاد إلى حدٍ كبير بالمنهج العقلي لدى المعتزلة؛ حيث رسخ في بنيته المعرفية أسس الاستدلال العقلي ومواجهة الشبه، بيد أنه جعل همه الأول

١ – (أمين ٢٠١٣م، ظهر الإسلام ص٧٦٩)

٢ – (السبكي ١٤١٣هـ، طبقات الشافعية الكبرى ٣٤٧/٣)

تقديم النقل وجعله أساس الاستدلال، واستعان مع ذلك بالأدلة العقلية في مجادلة الخصوم.

وتطور منهج الاعتماد الثانوي على العقل بعد أبي الحسن الأشعري (٢٦٠هـ) على يد أتباع المذهب بشكل يتناسب مع طبيعة حال كل عصر، فقد "كان أهل السُّنة من قبلِ الأشعري لا يعتمدون إلا على النقل في أمور الاعتقاد على حين أخذتِ الفلسفة توجِّه أهل الفِرَق إلى الاعتماد على العقل؛ فلمَّا أخذ الأشعري في مناضلة المبتدعة بالعقل حفاظًا للسنة، جاء أنصار مذهبه من بعده يُثبِتون عقائدهم بالعقل تدعيمًا لها ومنعًا لإثارة الشُّبَه حولها، ووضعوا المُقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والأنظار"[١]

ورغم التطورات التي لحقت المذهب في شتى مراحله، إلا أنه لم يخرج عن الخط الذي رسمه أبو الحسن الأشعري (٢٦٠هـ) في بداية الأمر، وهو الوسطية والاعتدال؛ بداية من محاولته الأولى في التوسط بين الفقهاء والمحدثين وبين المعتزلة لما كثرت حملتهم عليهم بعد مبالغتهم في الاعتماد على العقل، حتى كاد الناس ينسوا فضلهم المشار إليه من قبل، وسيرًا بعد ذلك في مسلك التوسط بين الاعتماد على الأدلة كمقدمات للعقائد الإيمانية دون الخروج عن التأصيل النقلي لأسس الاعتقاد الذي اعتمده الأشاعرة المتقدمون بعد الأشعري (٢٦٠هـ) وفي مقدمتهم القاضي أبو بكر الباقلاني* (ت ٤٠٣هـ)، وإمام الحرمين أبو المعالي الجويني** (ت ٤٧٨هـ).

---

١ – (عبد الرازق،٢٠١١م تمهيد لتاريخ الفلسفة ص٤٢٧)

* – الإمام، العلامة القاضي، أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم البصري، ثم البغدادي، ابن الباقلاني، صاحب التصانيف، وكان يضرب المثل بفهمه وذكائه، وكان ثقة إماما بارعا، صنف في الرد على الرافضة، والمعتزلة، والخوارج والجهمية والكرامية، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه في مضائق، فإنه من نظرائه=

ثم اتضح منهج الوسطية والاعتدال، مع مراعاة المقام على يد الإمام أبو حامد الغزالي* (ت ٥٠٥هـ) عندما أدخل المنطق في طرق الاستدلال على العقائد بعد إلباسه ثوب الإسلام، واستقائه من جوانب المعرفة المختلفة كالمناهج الفلسفية، والتوجهات الذوقية بما يصب بشكل أساس في خدمة هذا المنهج الوسطي في إثبات العقائد بما لا يحصر طرق الاستدلال على مسلك

= توفى سنة ٤٠٣هـ. ينظر: (الذهبي ١٩٨٥، سير أعلام النبلاء ١٩٠/١٧)

**- إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، شيخ الشافعية، إمام الحرمين، تفقه على والده فأتى على جميع مصنفاته، وتوفي أبوه وله عشرون سنة فأقعد مكانه للتدريس وكان يدرس ويخرج إلى مدرسة البيهقي، وأحكم الأصول على أبي القاسم الإسفراييني. له العديد من التصانيف منها: "نهاية المطلب في المذهب" و "الإرشاد في أصول الدين"، كتاب "الرسالة النظامية في الأحكام الإسلامية"، كتاب "الشامل في أصول الدين"، كتاب "البرهان في أصول الفقه"، كتاب "غياث الأمم في الإمامة"، وغيرها. توفى سنة ٤٧٨هـ. ينظر: (الذهبي ١٩٨٥ ٤٦٨/١٨-٤٧٠)، (الصفدي ٢٠٠٠، الوافي بالوفيات ١١٦/١٩)

* - محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، فيلسوف متصوف، ولد في الطابران، قصبة طوس بخراسان، درس على إمام الحرمين وأعجب به أهل العراق لعلمه وحسن تدريسه، ثم إنه ترك جميع ما كان فيه في ذي القعدة سنة ٤٨٨هـ وسلك طريق الزهد والانقطاع وحج فلما رجع توجه إلى الشام فأقام في مدينة دمشق مدة يذكر لدروس في زاوية الجامع المعروفة الآن به في الجانب الغربي، ثم توجه إلى القدس واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظمة، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة ثم عاد إلى وطنه بطوس واتخذ خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، وله العديد من المصنفات أشهرها: إحياء علوم الدين، الاقتصاد في الاعتقاد، تهافت الفلاسفة، محك النظر، معارج القدس، مشكاة الأنوار، مقاصد الفلاسفة، المضنون به على غير أهله، المنقذ من الضلال.. وغيرها. انظر: (الأعلام ٢٢/٧)، (سير أعلام النبلاء ٣٢٢/١٩)، (الوافي بالوفيات ١١٩/١).

واحد، بل يتنوع حسب وجهة المخاطب وطبيعة ثقافته وحال زمانه. وتبعه على معالم هذا المنهج فخر الدين الرازي* (٦٠٦هـ) مع إضافته طابعًا خاصًا ميزه عن سابقيه، وسخر المناهج الفلسفية والمقدمات المنطقية لفهم كتاب الله وربط ذلك برباط عجيب حقيق بالدراسة والبحث بشكل استقصائي يصب في خدمة الواقع المعرفي، فما أنسب منهجه لتنزيله على مستجدات الواقع المعرفية، وتقديم حلول بديلة لكثير من محاولات استيراد مناهج التأويلية الحديثة أو ما يسمى بالهرمنيوطيقا الغربية.

ولم تقف طبيعة الدرس العقدي في المدرسة الأشعرية على حد الوسطية والاعتدال ومراعاة المقام عند هذا العصر، بل تبع ذلك محاولات متعددة لكفاية الواقع المعرفي بتغير طبيعة المتلقي، فبدأت الدراسات الكلامية الأشعرية تأخذ أشكالًا مختلفة؛ ما بين مختصرات وشروح وحواشي، وهذا واضح لدى المتأخرين من المتكلمين الأشاعرة كعضد الدين الإيجي (ت ٧٥٠هـ)، وسعد الدين التفتازاني (ت ٧٩٢هـ)، والسيد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) وغيرهم.

* - محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي البكري، أبو عبد الله، فخر الدين الرازيّ: الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل. وهو قرشي النسب. أصله من طبرستان، ومولده في الري وإليها نسبته، ويقال له (ابن خطيب الريّ) رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان، وتوفي في هراة. أقبل الناس على كتبه في حياته يتدارسونها، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم، وهو كبير جدا لكنه لم يكمله، وشرح سورة الفاتحة في مجلد، ومنها في علم الكلام: المطالب العالية، ونهاية العقول، وكتاب الأربعين، والمحصل، وكتاب البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان، وكتاب إرشاد النظار إلى لطائف الأسرار، وكتاب الزبدة والمعالم، وغير ذلك، وفي أصول الفقه: المحصول، والمعالم، وفي الحكمة: الملخص وشرح الإشارات لابن سينا وشرح عيون الحكمة وغير ذلك. توفى سنة ٦٠٦هـ. ينظر: (وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٨)، (الأعلام ٦/ ٣١٣).

ثم استمر الدرس العقدي بالمدرسة الأشعرية يؤدي هذا الدور في كثير من المؤسسات السنية على مستوى العالم، ولا زالت الجهود متتالية للاستفادة من هذا المنهج في خدمة الواقع المعرفي للأمة الإسلامية إيمانًا من هذه المؤسسات بطبيعة هذا المنهج الوسطية، وقدرته على استيعاب أكبر قطاع من المتلقين للخطاب الديني بشكل يتناسب بموضوعية مع وقائع العصر ونوازل الزمان.

المبحث الثالث

مسار الدرس العقدي في العصر الحديث

إن المطالع لتطور الدرس العقدي منذ العهد النبوي وحتى مطلع العصر الحديث، يلاحظ هذا الترابط التفاعلي بين الواقع وبين تجديد مناهج تداولية مسائل الاعتقاد، ليس في المؤسسات التعليمية وبين المختصين من طلبة العلم فحسب، ولكن أخذ هذا التفاعل أدوارًا وأشكالًا شتى في تشكل الواقع المعرفي للشعوب على مدار أجيال متلاحقة كما سبقت الإشارة إليه. وذلك لإدراك هؤلاء لحقيقة دور العقيدة في البناء المعرفي والسلوكي للمجتمعات في كل عصر، وامتلاكها لأدوات الأمن النفسي والاستقرار الفكري للفرد ومن ثم المجتمعات.

هذا الدور الذي أدركه أبو بكر الصديق في أول أزمة واجهت الأمة الإسلامية بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وبعدما كاد ثبات الأمة أن يتزعزع، وجد الصديق الحل السريع الذي يقضي على هذه الأزمة في حينها هو إحياء أسس الاعتقاد، فسارع رضوان الله عليه إلى تذكير الناس بالأصل العقدي الأول وهو التوحيد، وهنا يتجلى منهج الممارسة والتطبيق، ففرق كبير بين التلقي النظري وبين الممارسة العملية، وهذا كان أول درس عملي للمسلمين على الممارسة العقدية، وتفعيل أصول الاعتقاد في مواجهة الأزمات. هذه المفارقة المنهجية ما لبث أن أدركها الفاروق رضوان الله عليه مسلمًا معززًا لهذا الدور العظيم الذي قام به أبو بكر في تفعيل أحد أسس الاعتقاد، حينما قال: "فوالله لكأنِّي لم أتل هذه الآيات قط"[1]

وهذا الدور أدركه كذلك خلفاء بني أمية، ودعمته الدولة العباسية في بداية أمرها مع المعتزلة؛ حيث استعانت بهم على إعادة الاستقرار الفكري، والأمن العام في ذلك الوقت: "ولما جاءت الدولة العباسية وقد طم سيل الإلحاد

١ – (الزرقاني ١٩٩٦، ١٣٨/١٢)

والزندقة، وجد خلفاؤها في المعتزلة سيفًا مسلولًا على الزندقة، لم يفلوه بل شجعوه على الاستمرار في نهجهم."[1] وبغض النظر التدخلات السياسية التي أعقبت هذه الأحداث، فإن إحياء وتفعيل الدرس العقدي على يد مدرسة الاعتزال في ذلك الوقت استطاع بالفعل أن يقضي على فتنة عجزت القوى المادية القضاء عليها. ولما ثار الناس ضد المعتزلة، بل وضد السياسة السائدة في ذلك الوقت قام الأشاعرة بالدور نفسه، وهو إحياء دور العقيدة في بث الاستقرار العام وشيوع الأمن الفكري، مع اختلاف منهج التداولية عند الأشاعرة عن سابقيهم من المعتزلة.

وبعد تطور أساليب تناول الدرس العقدي على يد مدارس علم الكلام الثلاثة؛ المعتزلة والأشاعرة ومعهم الماتريدية، والتطورات العديدة التي لحقت هذه المذاهب على أيدي أتباعها وداعميها. وكذلك بعد التناول المعرفي الجديد الذي أدخله الإمام أبو حامد الغزالي على ممارسات الدرس العقدي، استمر هذا التطور التداولي يأخذ دوره على يد علماء أفذاذ في كل عصر، حتى بدأت تخفت أنواره مرحلة بعد أخرى، ويتقلص دور الدرس العقدي شيئًا فشيًا حتى وصل إلى مرحلة التنظير، ثم التعقيد، ثم الاقتصار على الساحات التعليمية، والقاعات المغلقة التي لا تكاد تخرج للواقع إلى بصورة نمطية بعيدة عن التطبيق والممارسة، إلا على مستوى نادر تبنته بعض المدارس والمؤسسات العلمية على مستوى العالم، والذي طمح الكثير منها لممارسة نفس الدور التداولي، مع تفاوت نسب النجاح والتراجع لأسباب وحيثيات متعددة سنتعرف عليها من خلال الأسطر التالية بمشيئة الله تعالى.

---

١ – (أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية ص١٢٥)

المطلب الأول: منهج تداولية الدرس العقدي في العصر الحديث

في الحقيقة أنه ومنذ بداية العصر الحديث أغرق الدرس العقدي بمرحلة جديدة من محاولة إثبات الذات، ليس على المستوى الدلالي والدفاعي فحسب، بل الأمر الأهم الذي أود تسليط الضوء عليه هو الإغراق في النزاعات الداخلية، فلم تعد مهمة المدارس العقدية منصبة على القيام بدورها الأساس وهو غرس العقائد وتدريسها، بقدر ما أضحى اهتمام كل مدرسة بإثبات أحقية منهجها في مقابل إبطال المناهج الأخرى، أو كشف جوانب ضعفها وبيان قصورها. هذا الأمر أرهق الكثير من المؤسسات العلمية التي أخذت على عاتقها مهمة الحفاظ على طبيعة الدرس العقدي كما عهدته الأمة الإسلامية بمراحل التراث المختلفة، ومحاولة تفعيله بشتى الطرق ولكن ضمن محاولات كثيرة باء بعضها – للأسف – بالفشل أو الاقتراب منه، والبعض الآخر لم يتوانى عن بذل الوسع في محاولات شتى لتفعيل هذا الدور واستعادة مهمته. وربما أستطيع أن أوضح هذه الصورة التي لا أعتقد أنها تغيب عن الكثيرين مع شيء من إمعان النظر – بطرح بعض أسباب إشكالية التداول التالية:

أولًا: التعصب المذهبي: ورغم أن تناولنا لهذا المصطلح في العصر الحديث، وفي ظل الثقافة الإسلامية تناول مع شيء من الاستنكار للتعارض الحاصل بين أصالة المنهج وواقع الممارسات، إلا أن بيان الإشكالية بقصد العلاج خير من تصدر إظهار أصل المنهج مع سريان هذا الداء العضال بين أركانه. فإن الاختلاف سنة كونية، وطبيعة تميزت بها الأمم ذات السعة الفكرية، والمعتقدات المبنية على مطلق الاختيار وإمكان السعي نحو الغاية الواحدة من طرق متعددة؛ لذلك يقول عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١هـ) رضي الله عنه: " مَا أَحِبُّ أَنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى الله عليه وسلّم لا

يختلفون، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ قَوْلًا وَاحِدًا لَكَانَ النَّاسُ فِي ضِيقٍ"[1] والحاصل أن الحقائق ثابتة والأنظار إليها متعددة، وتختلف المسالك بناءً على ذلك، ولم يكن الاختلاف نقصًا، بقدر ما هو تعبير عن حالة صحيحة من سعة المنهج الديني: ﴿وَلَو شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّة وَٰحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] وأمر الغايات واضح، وتعدد المسالك والمسائل مرده إلى عالم الغيب والشهادة: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

هذا المنهج رغم أصالته قد أغفله الكثيرون من أتباع المذاهب المختلفة في العصر الحديث، وساد التعصب للانتماء المذهبي الكثير من المؤلفات، والسجالات، وحتى المحاجاة بين طلبة العلم. تطور الأمر إلى التنابز بالاتهامات الفكرية والانتماءات السياسية، إلى أن بلغ الحال إلى الترامي بالخروج عن الدين بالكلية. وأبرز ممارسات هذا التعصب غياب الموضوعية في كثير من المراكز العلمية، وسيادة نوع واحد من المؤلفات وتحريم قراءة أو مدارسة غيره، إلا على سبيل النقض الذي لا يسبقه أي تصور أو تحقق من احتمالية الصواب أو تعدد طرقه. وترى طلاب العلم يتصنفون حسب الانتماء الاسمي لواحد من المذاهب السائدة، ويتعصبون لأئمته ومؤلفاته، ويعادون أصحاب المذاهب الأخرى وأحدهم لا يعي أصول المذهب الذي ينتمي إليه.

ثانيًا: أدلجة مفهوم النجاة: ولعل أصل التعصب راجع إلى حصر مفهوم النجاة على فرقة بعينها، ولزوم الحكم بضلال ما عداها، وأصبحت هذه هي الثقافة السائدة في العديد من المجالس العلمية حتى التي تُلقَى على العامة، الأمر الذي أدخل اليأس في نفوس البعض من عدم نيله مقام النجاة، وإدراكه أنه مهما اكتسب من الأعمال الصالحة فهو من الهالكين، لأنه لم يتمكن من التكَيُف المعرفي والسلوكي الذي حددته له هذه الفرقة "الناجية"، والناجي

١ – (الشاطبي ٢٠٠٨م، الاعتصام ٩٦/٣)

حصرًا أَتبَاعُها. والبعض الآخر تنتابه الحيرة ويتوه عند ذوبان مفهوم الحق وسط قوى متنازعة تتجاذبه كل منها من جهة تحت مسمى الحق الحصري والنجاة المزعومة.

ثالثًا: نمطية التداول: ربما يتساءل البعض عن سبب غياب الدرس العقدي عن أداء مهمته في العصر الحديث، وهو أحوج ما يكون إلى هذا الدور؟ والحقيقة أن أحد أهم أسباب هذا التراجع هو نمطية طرق التداول، وبُعْد المدارس العلمية عن الواقع، بحيث اقتصر البحث العقدي على المختصين داخل أسوار قاعات الدرس النظامية. وغياب التدرج التعليمي لمباحث العقيدة مقارنة بالعلوم الأخرى؛ وبمراحل سابقة لتداولية الدرس العقدي، فإنه صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذ إلى اليمن قال له: " إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ، فَادْعُهُمْ إِلى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ، فإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لكَ بذلكَ، فأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قدْ فَرَضَ عليهم خَمْسَ صَلَوَاتٍ في كُلِّ يَومٍ ولَيْلَةٍ، فإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لكَ بذلكَ، فأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قدْ فَرَضَ عليهم صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِن أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ علَى فُقَرَائِهِمْ، فإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لكَ بذلكَ، فَإِيَّاكَ وكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ؛ فإِنَّه ليسَ بيْنَهُ وبيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ."[1] فالملاحظ في التدرج الدعوي في هذا المنهج النبوي هو أن كل مرحلة معرفية، يعقبها تطبيق سلوكي مبني على التسليم بها، ثم ينتقل إلى غيرها.. وهكذا.

لكن الملاحظ الآن في كثير من الدراسات العقدية عدم مراعاة مرحلية التدارس، فتستهلك كل أدواتها في مرحلة واحدة لا تتعداها، ولا تدع لطالبيها الفرصة لتجاوز التنظير إلى التطبيق والتفاعل، فكم سنوات قضيت في الإغراق في دراسة المتون التي لا تتعدى القرن الخامس عشر الهجري، يتقنها

---

١ – أخرجه البخاري في صحيحه (٤٣٤٧) مرفوعًا عن ابن عباس رضي الله عنه، كتاب: المغازي، باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع (١٦٢/٥)

الطلاب، ثم يقفون عاجزين على أبواب الميادين التفاعلية، وكم من طالب علم يحمل بين أضلعه متونًا وشروحًا يقف مكتوف الأيدي معقود اللسان عند تنزيل ما تعلمه على أرض الواقع ليرد على شبهة مستحدثة بطريقة تناسب سائليها. وهو معذور في ذلك، حيث أخذ التنظير نصيب التطبيق من وقته وجهده.

فكم نحن بحاجة إلى الخروج من النمطية التداولية للدرس العقدي النظامي في المدارس والجامعات؛ بحيث يعاد ترتيب المناهج الدراسية بطريقة مرحلية، يعقب كل مرحلة منها آليات التطبيق والممارسات الواقعية، والمساهمة في حل المشكلات المجتمعية، لتعود العقيدة محور الحركة السلوكية في حياة الإنسان المسلم، وتعود للمدارس الدينية مكانتها في نفوس الدارس والمتلقي على حد سواء.

أما عن أشهر المناهج المعاصرة لتداول الدرس العقدي فيلخصها أستاذنا الدكتور حسن الشافعي في سياق عرضه للاتجاهات الحالية لتناول علم الكلام، حيث يذكر أنها تتراوح بين:

١. اتجاه انتقائي: بمعنى أنه يتبنى بعض نظريات أو مواقف كلامية أو إسلامية بصفة عامة – يمكن صقلها واستخدامها في الحياة المعاصرة– ولكن دون تأصيل شرعي أو التزام كامل. ويظهر خاصة لدى المتأثرين بالفكر الغربي.
٢. واتجاه تقليدي محافظ: ينزع إلى الالتزام بالتراث الكلامي مع تجديد في الأسلوب فقط، أو يتصدى لخصوم جدد، ولكن بنفس الأسلحة القديمة، وهو يسود في الأوساط الدينية المحافظة، والجامعات الإسلامية التقليدية.

٣. واتجاه سلفي معتدل: يتفتح على واقع المسلمين المعاصر، ولكن لم ينضج أو تتحدد ملامحه ومقوماته بعد، ونجده لدى رجال الاتجاهات التجديدية الحديثة.[١]

٤. وأزيد على ذلك الاتجاه المعرفي الذوقي: الذي يمزج بين طريقي النظر والسلوك معًا، ويمثله أصحاب المنهج العقدي المنطبع بالطابع الإشراقي أو الصوفي والذي هو امتداد لمنهج الإمام الغزالي وبعض حكماء بلاد فارس أمثال فخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) وصدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٠هـ).

٥- والحقيقة إن العصر الحاضر لا يتطلب تصنيف الاتجاهات وتحديد مناهجها فحسب، ولكن بات من ضرورات الوقت توظيف هذه الاتجاهات لخدمة الواقع المعرفي، وتلبية الاحتياج الفطري للرباط العقدي الذي يعيد الإنسان إلى ربه مطمئنًا آمنًا، وهذا لا يتحقق إلا بإحياء دور الدرس العقدي في البيئة الإسلامية من جديد، بجميع أشكاله وتوجهاته المشار إليها، كلٌ يسلك السبيل الذي يجد فيه مبتغاه ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، دون حصر لفهم الحقائق القابلة لتعدد المسالك، واحتقار للمفاهيم، الأمر الأهم هو حدوث التفاعل بين المعتقد والسلوك، وتلمس أثار ذلك في إمكان الإنسان المؤمن التعايش بروح العقيدة، حيث تمنحه القدرة لمواجهة التحديات الحياتية بشتى أشكالها.

١ - (علم الكلام بين ماضيه وحاضره ص ٥٥)

المطلب الثاني: أدوات تعاطي الدرس العقدي فترة جائحة كورونا*

بنظرة إيجابية إلى حدوث الأوبئة، أستطيع القول إنها وسيلة غير مباشرة لإحكام مسألة في غاية الأهمية بذل كثير من المفكرين على مر العصور جهودًا عظيمة في سبيل إثباتها، وفي البحث عن آلية ميسرة لتحصيل استيعاب الترابط النظامي الجامع للعلاقة بين الأسباب ومسبباتها وبين إدراك حقيقة فعل الله تعالى في الوجود. وباختصار مفيد هي وسيلة لربط العقل بالإيمان؛ فكم من عقول حجبها التعاقب المنتظم للطبائع الكونية عن استشعار التأثير الإلهي في الوجود، ووجدت في الإنكار مخرجًا لكل خبر وارد بخرق واحد من هذه الطبائع المنتظمة بآلية معلومة الأسباب، فحَصَّلت سعادتها بتوالد الأسباب وتحقيق غايات نافعة، إلا أنها حُرمت من الاستئناس بمكامن الإمكانات العقلية حينما ترتبط بمُسَبِب الأسباب من طريقٍ يلملم شتات جميع الإدراكات، فتحصل من خلالها السعادة الأتم التي لا تجزعها الخوارق ولا توقفها الأزمات. وكم من أوهام وقفت على حدود العادات،

---

* – جائحة فيروس كورونا، أو جائحة COVID 19 هي جائحةٌ عالميةٌ مستمرةً حاليًا، سببها مرض فيروس كورونا، وهو مرض تنفسي شديد العدوى. تم اكتشاف COVID-19 لأول مرة في عام ٢٠١٩ في مدينة ووهان بالصين. كانت نسبة كبيرة من الإصابات في الصين غير موثقة قبل تنفيذ قيود السفر وإجراءات التحكم الأخرى في أواخر يناير ٢٠٢٠. ونتيجة لذلك انتشر COVID-19 بسرعة كبيرة إلى دول في جميع أنحاء العالم ، مما أدى إلى انتشار الجائحة للعديد من السنوات ونتج عنها أزمة عالمية أسفرت عن ملايين الوفيات.

انظر: (Kara Rogers 2022: www.britannica.com/science/COVID-19)

وحجبها فك الترابط العقلي عن الرؤية الكلية للنظام الكوني المتكامل، فتحققت بالاستئناس، وحرمت من الترقي المعرفي، بيد أن خسارتها أقل من الأولى.

وهنا تأتي الابتلاءات في شكل أوبئة أو كوارث كونية ينصدم منها كلا الاتجاهين في بادئ الأمر، ثم ما يلبث ذوو العقول السليمة والفِطَر النقية أن يربطوا بين الإيمان والعقل، بين التسليم والأخذ بالأسباب؛ فكم كنا نسمع الأئمة بالمساجد ينادون: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وفي نفس الوقت يلتمسون الالتزام بالإجراءات الاحترازية، وتحري مسببات الوباء. وهنا يتجلى دور إحياء المعتقد الصحيح في صورة ممارسة حقيقية عرفت بالإيمان بالأسباب وقدرة مسببها.

وقد كانت هذه الفترة ميدانًا عمليًا لواقعية تعاطي الدرس العقدي وقت الأزمات من خلال فهم حقيقة التجادل بين الثنائيات التالية:

أولًا: جدلية التوكل على الله والأخذ بالأسباب: قد يجد البعض صعوبة في الربط بين التوكل والأخذ بالأسباب، ويرجع ذلك لغياب حقيقة التوكل، والثقة المطلقة بآلية سريان الأسباب في الوجود. لكن المِحَن تُحدِثُ شيئًا من الترابط الفعلي بينهما مما يُقَرِب المفهومين إلى حيز الإدراك؛ وهذه أحد الحِكَم الحاصلة من الابتلاءات التي يتعرض لها الناس في الحياة، ويظنون أنها شر، وإبعاد من رحمة الله، والحقيقة أنها في الغالب تُنَقِي جوهر الإنسان كما تُجلي النارُ الذهبَ الخالص عن الشوائب؛ ولذلك كان أكثر الناس ابتلاء هم الأنبياء ثم من يتلوهم في المرتبة، فقد "سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: "الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صَلَابَةٌ زِيدَ صَلَابَةً، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ خُفِّفَ

عَنْهُ، وَلَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى الْأَرْضِ مَا لَهُ خَطِيئَةٌ"[1] فحينما يقع الإنسان في محنة يسارع إلى الطبيعية مفتشًا عن الأسباب المادية وراء محنته، ويسعى بكل ما أوتي من حكمة في إبطال هذه الأسباب، أو تفعيل مقابِلاَتها، بيد أنه أحيانًا لا يجد لدى الطبيعة سببًا مباشرًا أو آنيًا لمحنته، فيلجأ إلى القوة التي تفوق الطبيعة، وتعلم ما تخفيه من أسرار. هذه القوة الغيبية تأخذ شكل التدين أحيانًا، وتلبس ثوب الخرافة والميثولوجيا* أحيانًا أخرى. إلا أنها في كلا الحالين ومع هذا التراتب تسعى إليها مضطرة بعد عجزها عن استنطاق قوى الطبيعة المعتادة.

وهنا يتجلى دور إحياء المعتقد الديني؛ فالاستيعاب الإيماني للمِحَن والأزمات لا يخرج عن هذين التوجهين، مع إدراك الفارق من جانبين:

- الأول: أن العقل المؤمن لا يفصل بين المرحلتين- النظر في الأسباب واللجوء إلى القوة الغيبية- لكنه يعتبرهما ذراعان يقود بهما قارب النجاة الذي يسير به في بحر الدنيا بما تحمله من منح وابتلاءات، ومن نعم وعطايا كذلك.

---

١ – رواه الدارمي في السنن (٢٨٢٥) مرفوعًا عن سعد بن أبي وقاص، كتاب: الرِّقاق، باب: في أشد الناس بلاءً، وعلق المحقق على الحديث بأن: إسناده حسن والحديث صحيح. (١٨٣١/٣)

* – يشير مصطلح الميثولوجيا mythology إلى دراسة مجموعة من الأساطير أو القصص حول شخص معين أو ثقافة أو دين أو أي مجموعة ذات معتقدات مشتركة. لا يعتبر معظم الناس أن الأساطير صحيحة تمامًا، لكن ما زال البعض يأخذها على محمل الجد. وتمتلئ الأساطير اليونانية بالحكايات حول العلاقات بين الآلهة والبشر، وقد شكلت الميثولوجيا جزءًا من الثقافة السائدة لدى كثير من الشعوب. ينظر: (https://www.vocabulary.com/dictionary/mythology)

- والفارق الثاني: أن المؤمن لا يلجأ إلى القوة الغيبية مضطرًا، بل مطمئنًا مدركًا لحقيقة التأثير الحاصل في العالم الطبيعي، المرتبط دومًا بالفعل الإلهي في الوجود، وهذا بالتعبير الديني هو عين التوكل على الله المفهوم من قوله عز وجل: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣] ولعل هذا من حِكَمِ ربط التوكل بالإيمان في أكثر المواضع التي ورد بها في القرآن الكريم، لذلك جعله الإمام أبو حامد الغزالي من باب الإيمان فقال: "اعلم أن التوكل من باب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل"[1]

فحقيقة التوكل كما أقرها فخر الدين الرازي: "التوكل: تَفَعُل، من وكل أمره إلى فلان إذا اعتمد فيه كفايته عليه ولم يتوله بنفسه، وفي الآية- ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢]- إشارة إلى أنه ينبغي أن يدفع الإنسان ما يعرض له من مكروه وآفة بالتوكل على الله، وأن يصرف الجزع عن نفسه بذلك التوكل"[2] فالأزمات تخلق نوعًا من الترابط الحقيقي بين التوكل بمعناه اليقيني، وبين الأخذ بالأسباب باعتبارها ميسرة بأمر الله، كائنة منتظمة بإرادته وتحقق فعله.

ثانيًا: جدلية الابتلاء والعقوبة: إذ يغلب على أوهام كثير من الناس ربط الابتلاءات بغضب الله وعقوبته، خاصة تلك الابتلاءات العامة مثل الأوبئة والكوارث الطبيعية. والغالب أن هذا الترابط ينسجه المتدينون على اختلاف ثقافاتهم ومعتقداتهم، وكان من الممكن توصيف هذه النزعة بالسلوك الديني، وضرورة الفرار إلى الله وقت الشدائد لولا حصر الترابط في التلازم والاطراد،

---

١ -)إحياء علوم الدين (4/245

٢ - (مفاتيح الغيب = التفسير الكبير ٣٤٨/٨)

واللجوء الاضطراري إلى هذا التفسير الموهوم وقت التصادم مع اختلال القوانين المعتادة، أو بعد فقد الأمل من التفسير الطبيعي.

والحقيقة أننا لا نستطيع أن ننكر مطلق الترابط بين الابتلاء ووقوع العقوبة الدنيوية، بدليل شهادة النصوص الدينية لوقوع ذلك لبعض الأفراد والأمم السابقة. لكنه من المهم أن نفرق بين أصل ورود تلك الأحداث الماضية في معرض التنبيه والتذكرة، وبين حصول العقاب الفعلي عقب كل ابتلاء. والناظر المدقق فيما مضى من أحداثٍ وردت بطريق التواتر يجد أنها أعقبت مقدمات طبيعية أو في صورة الطبيعية، كانت لها كالممهدات حتى لا تتنزع ثقة الإنسان بالسنن الكونية وتضيع الحقائق حال انفكاك الترابط العادي أو السببي بين مكونات الوجود الحادث.

بيد أنه لو اطُردت العلاقة بين العقوبة ووقوع الابتلاء، لما ظهر من الأفعال غير العقاب، لكنه سبحانه أعلمنا بأن عفوه أقرب، ورحمته سبقت غضبه، وهو سبحانه القائل: ﴿وَلَو يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلۡمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيۡهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [النحل: ٦١]، ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَو يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ﴾ [الكهف: ٥٨] إذ هو الخالق الحكيم، وهو أعلم بطبيعة الإنسان ونزوعه نحو الخير والشر، وأنه من الحكمة الكونية اشتمال العالم على مظاهرهما، كما يقول الشيخ الرئيس: "ولولا أن هذا العالم مركب عن ما يحدث فيه الخيرات والشرور ويحصل من أهله الصلاح والفساد جميعًا لما تم للعالم نظام؛ إذ لو كان العالم لا يجري فيه إلا الصلاح المحض لم يكن هذا العالم عالمًا، بل كان عالمًا آخر، ولكان يجب أن يكون العالم مركبًا على هذا الوجه والنظام، فإنه يجري فيه الصلاح والفساد جميعًا."[1] وهو سبحانه أعلم بذلك، بل وتقتضي حكمته ومشيئته نسبية الشر الناتج عن قصور النفس ونزولها عن حد الكمال، ولذلك ربط صلى الله عليه وسلم على قلب الصديق

١ – (ابن سينا ١٣٥٤هـ، رسالة في سر القدر ص ٢٢)

رضي الله عنه لما غَلَّب الخير واستثقلت نفُسه الشريفة حصولَ المعاصي، فإنه يروى في نزول قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]: "عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: نَزَلَتْ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – قَاعِدٌ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – "مَا يُبْكِيكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ " قَالَ: أَبْكَانِي هَذِهِ السُّورَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – "لَوْ أَنَّكُمْ لَا تُخْطِئُونَ وَلَا تُذْنِبُونَ لَخَلَقَ اللَّهِ أُمَّةً مِنْ بَعْدِكُمْ يُخْطِئُونَ وَيُذْنِبُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ"[1] فلا يقع الابتلاء رديفًا للعقوبة دائمًا، وليس من الحكمة ربطهما برباط التلازم وتجاهل المقدمات الطبيعية، وسعة فضل الله وعفوه، بيد أنه خرق لحدود الجزاء الأخروي.

ثالثًا: جدلية اعتياد النعم واستبعاد المصائب: فائتلاف النعم يُنسي الإنسان فضل سريانها، ويشعره بواجبية استحقاقها، مما يترتب عليه إهمال الشكر، والضجر من فقدان بعضها. والعجيب أن الإنسان حينما تتكاثر عليه النعم ويعتادها يكون بديل الشكر في كثير من الأحيان البعد والإعراض عن الله: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [فصلت: ٥١]، لذلك أمرنا الله عز وجل بشكر النعم، وعقَّب على ذكر النعم بأحقية الشكر عليها في العديد من الآيات: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمعَ وَٱلأَبصَٰرَ وَٱلأَفـْٔدَةَ قَلِيلا مَّا تَشكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلبَحرَ لِتَجرِىَ ٱلفُلكُ فِيهِ بِأَمرِهِۦ وَلِتَبتَغُوا۟ مِن فَضلِهِۦ وَلَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢]، فالشكر بجانب أنه ثناء بالجميل على صاحب الفضل، فإنه يُذَكِر الإنسان بأن سريان النعم ليس آليًا أو حتميًا ولكنه محض فضلٍ وكمال حكمةٍ وجُودٍ من الخالق جل وعلا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]

فحينما تكون هذه فلسفة الإنسان في فهم النعم والتعامل مع المنعم عز وجل، يتحقق الإيمان القلبي بسبق القضاء الإلهي، وسريان حكمة الله في

---

١ – (أ. النيسابوري ١٤١٢هـ–١٩٩٢م، أسباب نزول القرآن ص ٤٦٢)

خلقه، فيحدث الرضا عند المصائب ويزول اليأس الذي يصيب القلوب بسبب اعتياد النعم والارتكان إلى الأسباب. فالمفارقة السلوكية بين حصول اليقين القلبي عند وقوع المصائب، وفتح باب اليأس والإعراض ناتج عن التمييز بين منهجين للتعامل مع النعم المألوفة:

الأول: يرى ضرورية استحقاقها، ويستبعد تخلف سريان بعضها فيُمَكِّن للنفس من إدارة السلوك فتمتنع عن الشكر حال العطاء، وتخرج عن الرضا إلى اليأس حال المنع: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ٩-١٠]

والثاني: من يتنبه إلى عدم أحقية النعم لذاته، وأنها محض جود وفضل من الله تعالى، فلا يأمن لاستمرارها، ويرى في العطاء خيرية تستوجب الشكر، وفي المنع أو السلب خيرية تستلزم الرضا وتتطلب الصبر، وتحصيل هذا المقام يحتاج إلى تربية عقدية وبذل جهد لترويض السلوك، وهذا لا يتحقق إلا للمؤمن، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: " عجبًا لأمرِ المؤمنِ ، إنَّ أمرَه كلَّهُ له خيرٌ ، و ليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمنِ ، إن أصابتْهُ سرَّاءُ شكر وكان خيرًا لهُ ، وإن أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ فكان خيرًا له"[1] وهنا يتجلى الإيمان عند حدوث المصائب، فيتميز رد الفعل بالرضا والقبول لحصول التيقن بأن ما وعد الله خير وما عنده أبقى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]

وبإدراك حقيقة الترابط بين الثنائيات الثلاثة يستطيع الإنسان المؤمن تطبيق اليقين وامتلاك القدرة على مواجهة المصائب والابتلاءات. وهذا الأمر

---

١ – أخرجه مسلم في صحيحه (٢٩٩٩) مرفوعًا إلى صهيب بن سنان بن مالك رضي الله عنه، كتاب: الزهد والرقائق، باب: المؤمن أمره كله خير. والحديث إسناده صحيح على شرط مسلم (٤/٢٢٩٥)

استدعى استحداث نوع خطاب جديد للدرس العقدي وقت جائحة كورونا، انتقل فيه التنظير إلى التطبيق العملي، وذلك أدعى بتسليط الضوء على هذا المنهج في استحضار العقائد في الحياة العملية، وإمداد الدرس العقدي بأدوات مناسبة لهذا الدور العملي؛ كتيسير الخطاب، وربط المعتقد بالسلوك مع الاستئناس بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسنته في تفعيل تثبيت العقائد وقت الأزمات.

المطلب الثالث
عصر الميتافيرس ورؤيا مستقبلية لمنهج دراسة العقيدة

واجهت العلوم العقلية والشرعية ألوانًا مختلفة من التحديات عبر تطور التاريخ المعرفي، وقد استطاعت – إلى حدٍ كبير– أن تمارس دورها في مواكبة التغيرات الفكرية والمجتمعية، وكذلك التكنولوجية، وذلك بتطوير الوسائل واستحداث أدوات استطاعت من خلالها المحافظة على الأصول وخدمة الواقع. واليوم تواجه هذه العلوم على المستوى الأدائي نوعًا جديدًا من التحدي التكنولوجي، وأخص بالذكر مجال الاعتقاد الذي لا يمكن تهميش دوره أو تجاهله بأي حال من الأحوال.

هذا التحدي لم يعد فقط تحديًا فكريًا أو طبيعيًا يحتاج إلى إقامة دليل، أو استحداث آلية لرد شبهة، ولا هو مجرد التحدي الرقمي الذي يتطلب تطويع وسائل الدرس لمواكبة الواقع واختزال الوقت والمسافات للوصول إلى المتلقي. ولكنه في الحقيقة تحدي لواقع آخر؛ فاليوم: "يلوح في الأفق طريق ثالث يسد الفجوة بين هذين العالمين، الواقعي والرقمي، ليأخذ من الواقع شيئًا، والرقمي أشياءً، وخصائص أخرى، حيث بات العالم أقرب أكثر من أي وقت مضى من الانتقال إلى مرحلة الحياة الافتراضية الكاملة، التي أطلق عليها مارك زوكربرغ، المؤسس والرئيس التنفيذي لفيس بوك "ميتافيرس*" أو "ما وراء

* – الميتافيرس: Metaverse هو مساحة افتراضية ثلاثية الأبعاد عبر الإنترنت تربط المستخدمين في جميع جوانب حياتهم. ومن شأن هذا العالم أن يربط المنصات المتعددة، حيث إنه يشبه الإنترنت الذي يتضمن مواقع إلكترونية مختلفة يمكن الوصول إليها جميعًا من متصفح واحد. وقد ظهر هذا المفهوم لأول مرة في رواية الخيال العلمي Snow Crash من تأليف نيل ستيفنسون (Neal Stephenson). وفي حين أن فكرة الميتافيرس كانت في وقت من الأوقات مجرد خيال، فإنها الآن تبدو وكأنها يمكن أن تكون حقيقة واقعة في المستقبل. وقد يعني الميتافيرس أشياء كثيرة لأشخاص مختلفين بما في ذلك: الجيل القادم من الإنترنت، عالم افتراضي، يتعلق "الواقع الافتراضي" VR و "الواقع

العالم".[1] الأمر الذي يستدعي وضع رؤية مستقبلية لتصور واقع الدرس العقدي في ذلك العصر، وذلك كجزء من التأكيد على دور قيام علم العقيدة وسائر العلوم الشرعية بدورها في مواكبة هذا العالم الافتراضي.

فمن المهم الاستفادة من التطورات ومعايشتها، لكن الأمر الأهم الذي يستدعي جهدًا أكبر هو القيام بالدور الذي قام به الأوائل في المحافظة على الثوابت، واستحداث الوسائل التي تساعد على خدمة الواقع مهما تطورت أشكاله واختلفت معطياته. ولا شك أن جميع المعارف غير التكنولوجية، المرتبطة بالواقع الحقيقي وبالعالم الطبيعي تخوض هذا التحدي مع شيء كبير من الحذر؛ حيث تخشى الخروج من دائرة الواقع فيغيب دورها المنوط بها من حيث المسؤولية الدينية، وكذلك الخشية من أن يتم هذا التقدم على حساب العالم الطبيعي والحياة الحقيقية التي هي جزء من الوجود الفعلي للإنسان فتقصر في مسؤوليتها الإنسانية وكلاهما مرتبط بحفاظ الإنسان على أمانة الاستخلاف وعمارة الأرض.

وفي سبيل ذلك نجد على الطرف المقابل العديد من الجهود التي تحاول أن تشيد مناهج توافقية تحقق هذا التوازن المنشود، "وفي هذا الإطار، أصدر مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة– أبوظبي دراسة جديدة بعنوان "الميتافيرس.. مستقبل العمران البشري في عالم ما بعد الإنترنت" للدكتور إيهاب خليفة رئيس وحدة التطورات التكنولوجية، سلط من خلالها الضوء على خصائص هذ العالم الجديد الذي أصبح على شفا الاقتراب من حياة جميع البشر.. واستعرضت الدراسة حياة البشر في عالم ميتافيرس، ووصفتها

المعزز" AR، سلسلة من العوالم الافتراضية التي ترتبط بمعايير مشتركة وهوية حيث يمكن للأشخاص الانتقال من واحد إلى آخر حيث يمكن للناس البدء في الإنشاء والبناء داخل هذا العالم. انظر: (Binance Academy: ما هو العالم الافتراضي العملاق)، (ما هو الميتافيرس .. ولماذا يثير كل هذا الجدل؟! ٢٠٢٢)

١ – (خليفة ٢٠٢٢، ميتافيرس–مستقبل العمران البشري ..)

بالخالية من المشاكل، حيث يستطيع الشخص تحقيق طموحاته وبناء حياته المثالية، إلا أن الدراسة حذرت من الابتعاد عن الحياة الواقعية، والتحول عن عمران الأرض والتفاعلات الإنسانية بشتى أنواعها، حيث إن بيئة ميتافيرس كلها مصطنعة ومرتبة وفق خيال المستخدم ورغباته، كأنه يكتب رواية سعيدة ثم يعيش أحداثها بنفسه، فيُدمنُها ويصبح غير قادر على الخروج منها لمواجهة الواقع."[1] ومن هذا المنطلق أحاول من خلال هذا الطرح أن أفتح المجال للباحثين لتقديم مداخل توافقية تُمَكِن الدرس العقدي من القيام بدوره في عصر الميتافيرس، ومن هذه المداخل المقترحة:

أولًا: أتمتة* المؤلفات العقدية وتصنيفها: اعتاد الدرس العقدي على مراعاة حال المتلقي في كل عصر ومع كل طارئ يعرض له، ولذلك بات من ضروريات الوقت أن تخضع المؤلفات العقدية لهذا التطور التداولي من حيث آلية الوصول. فإن العقل المعاصر الذي اعتاد على تحصيل أدق المعلومات ببصمة إصبع لم يعد لديه من الطاقة البشرية على البحث بالطرق التقليدية، ومع احتياجه المستمر إلى التدخل العقدي، فإنه إذ لم تسارع المؤسسات العلمية التي تحمل المنهج الوسطي المعتدل في أتمتة التصانيف وتيسير آلية

---

١ – (خليفة ٢٠٢٢)

* – الأَتْمَتَة: مصطلح مُعَرَّب عن الإنجليزية Automation، تطلق على التطبيق الآلي على المهام التي كان يقوم بها البشر في السابق، والمهام التي كانت مستبعدة لولا تدخل الآلات والتكنولوجيا الحديثة. وقد شملت جميع جوانب الحياة. يُنسب أصل الكلمة إلى D.S. Harder، وهو مدير هندسي في شركة Ford Motor في ذلك الوقت. يستخدم المصطلح على نطاق واسع في سياق التصنيع، ولكن يتم تطبيقه أيضًا خارج التصنيع فيما يتعلق بمجموعة متنوعة من الأنظمة التي يوجد فيها استبدال كبير للعمل الميكانيكي أو الكهربائي أو المحوسب للجهد البشري والذكاء. انظر: (www.isa.org/about-isa/what-is-automation)، (www.britannica.com/technology/automation)

تحصيلها واستحداث تطبيقات بحثية، لاستحوذ على هذا المجال الضروري أسرع المنفذين وصولًا، وتنفتح ثغرة يصعب سدها إلا بنفس الآلية وبجهود مضاعفة.

وكذلك فإن المؤلفات العقدية تحتاج إلى إعادة تصنيف وترتيب حسب مستويات الدارسين، وتداعيات المخاطبين. وذلك لأن الناظر إلى المكتبة العقدية يجد أن أكثر المؤلفات مرتبة حسب التاريخ أو المذهب، رغم أنه كان من إحدى ميزات الدرس العقدي في حلقات الدرس والحوزات العلمية قديمًا ترتيب التصانيف حسب مستوى طالب العلم، ما بين المستوى المبتدئ والمتوسط والمتقدم، وها نحن اليوم بحاجة إلى إحياء هذا المنهج بآلية تناسب العصر.

ثانيًا: تطوير أدوات الدرس العقدي: فمما لا شك فيه أن هذا ليس بالأمر الهين، ولكنه يحتاج إلى جهود مكثفة على المستويين الفردي والمؤسسي، وطالما لم يكن تحقيق مثل هذه الأهداف العظيمة سهلًا في يوم من الأيام منذ تحمل المسلمون مهمة الحفاظ على الدين أسسًا وسلوكًا؛ فكما لم يكن من السهل اجتياز الدرس العقدي للعديد من المراحل وإمكانه أن يقوم بدوره؛ منذ بداية دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، ومواجهته معتقدات وثقافات متعددة، وكما استطاع المسلمون الأوائل الحفاظ على العقائد والقيام بدور تبليغها وتطبيقها في أشد الظروف وتحت أنظمة وتحديات مختلفة، ومثلما تمكن المتكلمون على اختلاف اتجاهاتهم تطويع وسائل المدارسة والتداول، وتعلم علوم ولغات وتشرب ثقافات من أجل القيام بنفس المهمة التي استمر من خلالها الدرس العقدي قائمًا بمهامه التأسيسية على مدار الزمان.

هذه الجهود لم تكن فقط جهودًا في استحداث الأدوات والمسالك، بل كانت كذلك في تبني مناهج غير تقليدية في تلك الأيام. كل هذا يعطينا أحقية الاستمرار في تطوير الأدوات واستحداث الوسائل التي تناسب متطلبات العصر. فلم يعد من المقبول أن يختزل الخطاب العقدي في نصوص تحفظ،

ومتون تردد داخل قاعات الدرس المغلقة، ويعيش الدارس في غربة عن العالم الواقعي.

ثالثًا: تيسير المصطلحات وعصرنة التطبيقات: استكمالًا لهذا الدور المنوط بالقائمين على أمر مدارسة العقيدة، أفرادًا ومؤسسات، فإنه من الأهمية بمكان التأكيد على ضرورة إعادة النظر في المقررات الدراسية التي تقدم لدارسي العقيدة في المدارس والجامعات؛ فمن الضروري أن يتمكن الطالب من معايشة تراثه وأن يعي أدوات تحصيله، ولكن ذلك لا يأتي دفعة، ولا يقوم به إلا أستاذ متمكن من الجانبين؛ التراث والتحديث، سيما ونحن نتحدث عن أدوات تحصيل تناسب طالب يتعايش مع عالم مرقمن، وهذا في الحقيقة يحتاج إلى منهجية تدريجية باستخدام التقنيات الحديثة في عرض مقررات المستوى المبتدئ بآلية المصطلح المزدوج؛ بمعنى استخدام وسيلة القراءة الآلية للمصطلحات الأصيلة بمقابلها القريب لإحداث نوع من التقارب المفاهيمي للطلاب في هذه المرحلة.

إلى جانب استخدام التطبيقات العصرية للممارسات العقدية؛ فيكون من المفيد للطالب خاصة في مرحلتي المبتدئ والمتوسط أن نتيح له باب الممارسة الفعلية، وأن تكون التطبيقات من واقعه وبأدواته من خلال ما يراه ويعايشه، مما ييسر عليه التطبيق الفعلي على مواقف مثيلة، بدلًا من العزلة الفكرية التي يعيشها دارسو التراث بالطرق التقليدية فقط.

وإنني لأجد في هذه الأطروحة فرصة لفتح باب التفكير الخلاق في استحداث أدوات ومناهج تخدم الواقع وتُمَكِن الدرس العقدي من أداء مهمته في ظل هذا التقدم الهائل لتكنولوجيا المعلومات، وتمهيدًا للإقدام على مرحلة جديدة مستدعية لبذل المزيد من الجهد واستفراغ الطاقات.

خـاتـمة

"حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ"[1]

علي بن أبي طالب رضي الله عنه

إن علم العقيدة من أشرف العلوم وأعظم المقاصد، إذ العقيدة أساس الدين وأصل بنائه؛ ولذلك أولاها العلماء اهتمامًا كبيرًا في كل عصر. ومن وسائل الاهتمام بتحقيق مقصد هذا العلم الأعلى تطوير أدوات تناوله حسب طبائع المتلقي ومستجدات كل عصر. ومن أولى وسائل تطويع العلوم لخدمة الواقع التعايش مع هذا الواقع وفهم ثقافته كوسيلة لتصويب توجيه الخطاب وتحقق غايته. والحقيقة أن محاولات تطوير الدرس العقدي ومناسبته لثقافة العصر ومستجداته ليس بالأمر المستحدث، بل هو منهج متأصل منذ بداية الدعوة، وتحمل مسؤولية بيان العقائد وغرس أسسها ومعايشة الواقع من خلال هذه الأسس، وهذا ما حاولت بيانه خلال هذا العمل الذي أسفر عن عدة نتائج:

أولًا: إن تشَكُّل البناء المنهجي للدرس العقدي في صدر الإسلام كان هو الأساس لجميع المراحل اللاحقة؛ حيث استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسي قواعد منهج تبليغ العقائد مراعيًا التنوع المعرفي والخلفيات الثقافية لدي المتلقي، الأمر الذي اتضح جليًا في أسلوب تبليغ العقائد إلى أهل مكة، وكيف راعى فيها صلى الله عليه وسلم تدرج الخطاب، وحرية المعتقد، والسبقيات المعرفية.

ثانيًا: أنه كان في تطور أدوات الدرس العقدي مع أهل المدينة المنورة خير شاهد على أصالة منهج مراعاة المقام، حيث استدعى الأمر آنذاك تطوير منهجي واستحداث أدوات جديدة لسبل ترسيخ العقائد، روعي فيها واقع الحياة الجديدة التي بدأت تكتمل أركانها من جميع النواحي، واستدعى الحال

١ – أورده البخاري في صحيحه (١٢٧) موقوفًا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كتاب: العلم، باب: من خص بالعلم قومًا دون قوم. (البخاري ١٤٢٢هـ، ٣٧/١)

تطبيق المعتقد من خلال الطور التربوي الذي عايشه النبي صلى الله عليه وسلم لحظة بلحظة مع هؤلاء، حيث كانت تتجلى السلوكيات التربوية الناشئة عن العلاقة التبادلية بين المحبة وصدق المعتقد، والتي استطاعوا من خلالها تقديم نموذج فريد للبشرية على التقويم العقدي للسلوك الإنساني التفاعلي.

ثالثًا: استطاع الدرس العقدي أن يقدم نموذجًا منهجيًا جديدًا وقتما اصطبغ الخطاب العقدي بالصبغة السياسية، وتحول أساس التناول المنهجي من الغرس والإثبات، إلى إعادة تحديد المفاهيم، وتبادل إطلاق الأحكام، سواء بهدف إخماد الفتن، أو إثارتها من جانب البعض.

رابعًا: مَثَّلَ التداول المنهجي لعلم الكلام تَشَكُّلًا جديدًا لطبيعة الدرس العقدي، على يد أشهر مدرستين في التراث الكلامي؛ مدرسة الاعتزال، والمدرسة الأشعرية، استطاعت كل واحدة منهما أن تقدم نموذجًا عمليًا لآليات تطوير التناول العملي للمعتقد في ظل اختلاف التداعيات وتجدده.

خامسًا: لم يقف الدور التفاعلي للدرس العقدي على التشكل الأولي لمدارس التراث الكلامية، ولكن أخذ هذا التفاعل أدوارًا وأشكالًا شتى في تشكل الواقع المعرفي للشعوب على مدار أجيال متلاحقة. وذلك لإدراك هؤلاء لحقيقة دور العقيدة في البناء المعرفي والسلوكي للمجتمعات في كل عصر، وامتلاكها لأدوات الأمن النفسي والاستقرار الفكري للفرد ومن ثم المجتمعات.

سادسًا: اشتملت مناهج تداول الدرس العقدي في العصر الحديث على نقاط قوة، وعوامل ضعف أدت إلى اقتصار الخطاب العقدي على المختصين، واختزاله بقاعات الدرس النظامية، الأمر الذي استدعى إعادة النظر في هذه المناهج وطرح رؤى جديدة لتطويرها للقيام بمهمتها الأولى.

سابعًا: كانت فترة جائحة كورونا ميدانًا عمليًا لواقعية تعاطي الدرس العقدي وقت الأزمات استطاع من خلاله احداث نوع من الترابط بين مجموعة من الثنائيات لا يمكن ضبطها إلا من خلال الممارسة الفعلية للمعتقدات.

وكان ذلك داعيًا إلى تسليط الضوء على هذا المنهج في استحضار العقائد في الحياة العملية.

وأخيرًا: فإن استمرار الدرس العقدي في أداء دوره في ظل عصر الميتافيرس يتطلب بذل جهود تبدأ من دراسة الواقع ومتابعة مستجداته، ووضع خطط لاستحداث أدوات ومناهج تخدم المجتمع وتُمَكِن القائمين على هذا الدور من فاعلية أدائه في ظل هذا التقدم الهائل لتكنولوجيا المعلومات.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا العمل دعوة لفتح المجال للتباحث حول آليات تجديد وتطوير أداء الدرس العقدي بما يتناسب مع مستجدات هذا العصر وتداعياته المستلزمة لذلك.

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ثبت بأهم المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم

ثانيًا: المصادر والمراجع الأخرى:

- (القاضي)، عبد الجبار بن أحمد. ١٩٩٦. شرح الأصول الخمسة. ط٣. حققه وقدم له: د: عبد الكريم عثمان، تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم (الإمام). القاهرة: مكتبة وهبة.
- إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي. ٢٠٠٨م. الاعْتِصَام. تحرير تحقيق: د هشام بن إسماعيل الصيني. المملكة العربية السعودية: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع،.
- ابن رشد، أبو الوليد. . فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال. ط٣. دراسة وتحقيق: محمد عمارة. القاهرة: دار المعارف.
- أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري. ١٤١٢هـ-١٩٩٢م. أسباب نزول القرآن. ط٣. تحرير تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان. الدمام: دار الإصلاح.
- أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م. صحيح مسلم. تحرير تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
- أبو الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير. ٢٠٠٩م. مسند الفاروق أمير المؤمنينأبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على أبواب العلم. تحرير إمام بن علي بن علي. مصر: دار الفلاح- مصر.
- أبو بكر البيهقي. ١٩٨٨م. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة. تحرير عبد المعطي قلعجي. دار الكتب العلمية، دار الريان للتراث.
- أبو عبد الله محمد بن عبد الباقي شهاب الدين بن محمد الزرقاني. ١٩٩٦. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. بيروت: دار الكتب العلمية.

- أبو عليي الحسين بن عبد الله بن سينا. ١٣٥٤هـ. رسالة في سر القدر– ضمن مجموع رسائل الشيخ الرئيس. ط١. حيدر آباد الدكن: جمعية دائرة المعارف العثمانية.
- أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي. ٢٠٠٠م. مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي). تحرير تحقيق: حسين سليم أسد الداراني. المملكة العربية السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع.
- أحمد أمين. ٢٠١٢م. ضحى الإسلام. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- ـــ. ٢٠١٣م. ظهر الإسلام. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.
- الأشعري، أبو الحسن. ١٩٥٥. اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. صححه وقدم له وعلق عليه: د. حموده غرابه. القاهرة: مطبعة مصر.
- الأشعري، أبو الحسن بن أبي موسى. ١٤٢٦هـ. مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين. ط١. نعيم زرزور. المكتبة العصرية.
- الإيجي، عضد الدين. ١٩٩٧. المواقف. ط١. تحقيق:عبد الرحمن عميرة. دار الجيل لبنان–بيروت.
- البخاري، محمد بن إسماعيل. ١٤٢٢هـ. صحيح البخاري. ط١. دار طوق النجاة.
- الجوزية، ابن قيم. ١٤٤٠هـ. زاد المعاد في هدي خير العباد. ط ٣. الرياض، دار عطاءات العلم .
- الحفني، عبد المنعم. ١٩٩٣. الفرق والجماعات والمذاهب الإسلامية. ط١. القاهرة: دار الرشاد.
- الذهبي، شمس الدين محمد. ١٩٨٥. سير أعلام النبلاء. ط٣. تقديم: بشار عواد معروف – تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط. مؤسسة الرسالة.
- الزركلي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس،. ٢٠٠٢. الأعلام. ط١٥. دار العلم للملايين.

- السَّاعي، تاج الدين ابن. ٢٠٠٩. الدر الثمين في أسماء المصنفين. تحقيق وتعليق: أحمد شوقي بنبين – محمد سعيد حنشي. تونس: دار الغرب الاسلامي.
- الشافعي، محمد بن إدريس. . ديوان الإمام الشافعي المسمى الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس. محمد بن إبراهيم سالم. مصر: مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع.
- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم. ١٤٣١هـ. الملل والنحل. مؤسسة الحلبي.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله. ٢٠٠٠. الوافي بالوفيات. تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى. بيروت: دار إحياء التراث .
- الطوسي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. إحياء علوم الدين. بيروت: دار المعرفة
- أنس، مالك بن. ١٩٩١م. موطأ الإمام مالك. د بشار عواد معروف – محمود محمد خليل. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي. ١٤١٣هـ. طبقات الشافعية الكبرى. ٢. تحرير د. محمود محمد الطناحي د. عبد الفتاح محمد الحلو. هجر للطباعة والنشر والتوزيع.
- جلال الدين السيوطي. ٢٠٠٥. جمع الجوامع المعروف ب الجامع الكبير. تحرير مختار إبراهيم الهائج – عبد الحميد محمد ندا. القاهرة – جمهورية مصر العربية: الأزهر الشريف.
- حسن عبد اللطيف الشافعي. ٢٠٢١م. علم الكلام بين ماضيه وحاضره، ضمن: مجموعة بحوث ومقالات في الفكر والحياة. ط١. القاهرة: مركز إحياء للبحوث والدراسات.
- خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن. ١٤٣١. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. المحقق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر.

- خليفة، إيهاب. ٢٠٢٢. "ميتافيرس ...مستقبل العمران البشري في عالم ما بعد الإنترنت." ٢٤ الخبر بين لحظة وضحاها.
- . شرح محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم.
- شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني. . المواهب اللدنية بالمنح المحمدية. القاهرة: المكتبة الوقفية.
- صفي الرحمن المباركفوري. ١٤٢٧هـ. الرحيق المختوم. دمشق: دار العصماء.
- فخر الدين الرازي. ١٤٢٠هـ. مفاتيح الغيب = التفسير الكبير. ط٣. بيروت: دار إحياء التراث العربي .
- محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية. القاهرة: دار الفكر العربي.
- محمد بن أبي الحديد المدائني، شرح نهج البلاغة. تحرير ضبط وتصحيح: محمد عبد الكريم النمري. بيروت– لبنان: دار الكتب العلمية.
- محمد بن عيسى الترمزي. ١٩٩٨م. الجامع الكبير – سنن الترمزي. تحرير بشار عواد معروف. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- محمد علي ، وعباس محمد حسن سليمان أبو ريان . مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
- مصطفى عبد الرازق. ٢٠١١م. تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية. تحرير تقديم: محمد حلمي عبد الوهاب. بيروت: دار الكتاب اللبناني.

ثالثًا: الروابط والمواقع الإليكترونية:

- . ٢٠٢١. "ما هو العالم الافتراضي العملاق Binance Academy . Binance Academy(ميتافيرس)؟"

https://academy.binance.com/ar/articles/what-is the metaverse?

- Kara Rogers .م٢٠٢٢ .Britnnica . ١١ مايو . https://www.britannica.com/science/COVID-19.

- Mikell P. Groover" .britannica encyclopedia ". https://www.britannica.com /The Editors of Encyclopaedia Britannica .٣ ٢٠٢٣ . https://www.britannica.com/technology/automation.

- Vocabulary.comhttps://www.vocabulary.com/dictionary/mythology.

- What is Automation? ISA International Society of Automation .https://www.isa.org/about-isa/what-is-automation.

- ٢٠٢٢. "ما هو الميتافيرس .. ولماذا يثير كل هذا الجدل؟!" صحيفة مال https://maaal.com/archives/202212/%D9%85%D8%A7-%D9%87%D9%8A

References

awlan: alquran alkarim

thanyan: almasadir walmarajie al'ukhraa:

'iibrahim bin musaa bin muhamad allakhmi algharnatii alshaatibii. 2008ma. alaetisam. tahqiqu: d hisham bin 'iismaeil alsiyniu. almamlakat alearabiat alsueudiatu: dar abn aljawzi lilnashr waltawzie,.

-'abu alhasan eali bin 'ahmad alniysaburi. 1412h-1992mi. 'asbab nuzul alqurani. ta3. tahqiqu: eisam bin eabd almuhsin alhimaydani. aldamaam: dar al'iislahi.

-'abu alhusayn muslim bin alhajaaj alqushayrii alnaysaburi. 1374 ha - 1955 mi. sahih muslma. tahqiqu: muhamad fuad eabd albaqi. alqahirat: matbaeat eisaa albabi alhalabi washarkah.

-'abu alfida' 'iismaeil bin eumar abn kathirin. 2009ma. musnid alfaruq 'amir almumininabi hafs eumar bn alkhataab radi allah eanh wa'aqwaluh ealaa 'abwab aleilmi. 'iimam bin ealii bin eulay. masra: dar alfalahi-masr.

-'abu bakr albayhaqi. 1988ma. dalayil alnubuat wamaerifat 'ahwal sahib alsharieati. eabd almueti qileaji. dar alkutub aleilmiati, dar alrayaan liltarathi.

-'abu eabd allh muhamad bin eabd albaqi shihab aldiyn bin muhamad alzarqani. 1996. sharah alzarqani ealaa almawahib alladuniat bialminah almuhamadiati. bayrut: dar alkutub aleilmiati.

-'abu ealayy alhusayn bin eabd allh bin sina. 1354h. risalat fi siri alqudr- dimn majmue rasayil alshaykh alrayiysi. ta1. haydar abad aldakn: jameiat dayirat almaearif aleuthmaniati.

-'abu muhamad eabd allh bin eabd alrahman aldaarmi. 2000m. musnad aldaarimii almaeruf bi (snin aldaarmi). tahqiqu: husayn salim 'asad aldaarani. almamlakat alearabiat alsueudiatu: dar almughaniy lilnashr waltawziei.

-'ahmad 'amin. 2012m. dahaa al'iislami. alqahirati: muasasat hindawiun liltaelim walthaqafati.

-'ahmad 'amin 2013m. zahr al'iislami. almamlakat almutahidati: muasasat hindawi.

-taj aldiyn eabd alwahaab bin taqi aldiyn alsabki. 1413hi. tabaqat alshaafieiat alkubraa. ta2. tahrir da. mahmud muhamad altanahi da. eabd alfataah muhamad alhulu. hajar liltibaeat walnashr waltawzie.

-jalal aldiyn alsuyuti. 2005. jame aljawamie almaeruf bialjamie alkabira. tahrir mukhtar 'iibrahim alhayij - eabd

alhamid muhamad nida. alqahirat – jumhuriat misr alearabiat: al'azhar alsharif.

–hasan eabd allatif alshaafieii. 2021m. ealm alkalam bayn madih wahadirihi, damna: majmueat buhuth wamaqalat fi alfikr walhayaati. ta1. alqahirati: markaz 'iihya' lilbuhuth waldirasati.

–shihab aldiyn 'ahmad bin muhamad alqistalani. . almawahib alladunyat bialminah almuhamadiati. alqahirati: almaktabat alwaqfiati.

–sfi alrahman almubarikifuri. 1427hi. alrahiq almakhtumu. dimashqa: dar aleasma'i.

–fakhr aldiyn alraazi. 1420hi. mafatih alghayb = altafsir alkabiru. ta3. bayrut: dar 'iihya' alturath alearabii .

–"ma hu almitafirsi, walimadha yuthir kula hadha aljadali?!" 2022 sahifat mal. https://maaal.com/archives/202212/

–muhamad 'abu zahrata. tarikh almadhahib al'iislamiat fi alsiyasat waleaqayid watarikh almadhahib alfiqhiati. alqahirata: dar alfikr alearabii.

–muhamad bin 'abi alhudid almadayini. . sharah nahj albalaghati. dabt watashiha: muhamad eabd alkarim alnamiri. bayrut– lubnan: dar alkutub aleilmiati.

–muhamad bin eisaa altarmzi. 1998ma. aljamie alkabir – sunan altarmizi. tahrir bashaar eawad maeruf. bayrut: dar algharb al'iislamii.

-muhamad eali , waeabaas muhamad hasan sulayman 'abu rayaan . madkhal lidirasat alfalsafat al'iislamiati. alqahirata: dar almaerifat aljamieiati.

-mistafaa eabd alraaziq. 2011m. tamhid litarikh alfalsafat al'iislamiati. taqdima: muhamad hilmi eabd alwahaabi. bayrut: dar alkitaab allubnani.

فهرس الموضوعات

مقدمة ١٢٢

المبحث الأول: الدرس العقدي في صدر الإسلام..... ١٢٥

المطلب الأول: طبيعة الدرس العقدي في مكة ١٢٥

مراعاة التطور المعرفي لدى المتلقي ١٢٦

تنوع طرق الاستدلال ١٢٧

التدرج في تغيير السوابق المعرفية ١٢٨

مراعاة حرية المعتقد ١٣٠

المطلب الثاني: تطور أدوات الدرس العقدي مع أهل المدينة ١٣٢

تطور النظرة الوجودية للعلاقة بين الحياة الدنيا والآخرة.....١٣٢

التداول المعرفي والاستحضار السلوكي لتأثير الفعل الإلهي في الوجود ١٣٤

تأصيل العلاقة التبادلية بين المحبة وصدق الاعتقاد.....١٣٥

إحياء الجانب التطبيقي للإيمان بجميع الأنبياء.....١٣٧

المطلب الثالث: تجدد التداولية بتسيس الأحكام العقدية ١٤٠

المبحث الثاني: الدرس العقدي وعلم الكلام ١٤٥

المطلب الأول: معالم الدرس العقدي بمدرسة الاعتزال.....١٤٧

التقعيد والتأصيل.....١٤٧

منهج الدفاع ورد الشبه.....١٤٨

اعتماد العقل مشتركًا حواريًا عند الاختلاف.....١٤٨

المطلب الثاني: المذهب الأشعري وليد لمراعاة المقام.....١٥٣

المبحث الثالث :مسار الدرس العقدي في العصر الحديث ١٥٩

المطلب الأول: منهج تداولية الدرس العقدي في العصر الحديث ١٦١

المطلب الثاني: أدوات تعاطي الدرس العقدي فترة جائحة كورونا.....١٦٦

المطلب الثالث: عصر الميتافيرس ورؤيا مستقبلية لمنهج دراسة العقيدة١٧٤

خاتمة ١٧٩

ثبت بأهم المصادر والمراجع ١٨٢

فهرس الموضوعات.....١٩٢